ثقافات الشعوب





الجبل الذهبي

حكايات شعبية من روسيا

جمع: فيرا دي بلومينتال
ترجمة: مايسة عواد

الجبل الذهبي
حكايات شعبية من روسيا

جمع:
فيرا دي بلومينتال

ترجمة:
مايسة عواد





الجبل الذهبي

حكايات شعبية من روسيا

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PZ8.B63.F012 2010
Blumenthal, Verra Xenophontovna Kalamatianole.
[Folk Tales From the Russian]

الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا/ جمع فيرا زينوفونتوفنا كالاماتيانو دي بلومينتال؛
ترجمة مايسة عواد.- ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
128ص: 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 978-9948-01-335-8
ترجمة كتاب: Folk Tales From the Russian
1 - القصص الشعبية الروسية. 2 - الحكايات الروسية. أ- عواد، مايسة.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التنان



info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

المحتويات

هذه السلسلة

تأتـي هذه السلسـلة التـي تجمع تراث الشـعوب مـن الحكايات والأسـاطير والخرافات الشعبية، منسـجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسـها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العـالم العربـي. تلـك القيـم والأهداف التـي تسـعى أبوظبي إلى تجسـيدها، لتشيع ثقافة التسـامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعـراق والجنسـيات والثقافات، وجمعها تحت سـقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في

أقاصي الغرب، أو شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

في روسيا، كما غيرها من دول العالم، تتلاشى الحكايات الشعبية أمام ما تفرضه الروح العملية للتقدم الحضاري. فتجد الشاعر الرعوي المحب للسفر أو الحكواتي، والـ«نيانيا» المخلص، الحاضن المحبوب للعديد من الأجيال، ينقرضون جميعهم، ومعهم الحكايات والأساطير. وتندثر معهم آخر أصداء أفراح الأمة ومعاناتها الأولى، وآمالها ومخاوفها. وأيّ دارس للفلكلور يدرك أنه قد آن الأوان للإسراع في جمع هذه الحكايات الآخذة بالاندثار وحفظها من أجل أجيال المستقبل. وكل أملي أن أتمكن، عبر بعث الحكايات في هذا الكتاب، وفي نسخة مطبوعة لأول مرة، أن يتمكّن أطفال العالم من مشاركة أطفال روسيا في متعة إلقاء نظرة على العالم السحري للأمة الروسية القديمة.

فيرا دي بلومينتال

الأميرة الضفدعة

في قديم الزمان، في «تسارستفو»[1] روسية، عاش أمير حاكم مع الأميرة زوجته. كان لهما ثلاثة أبناء صغار، وكانوا جميعهم شجعاناً إلى درجة تفوق الوصف. وحمل أصغرهم اسم إيفان تساريفيتش.

وذات يوم قال الوالد لأبنائه: «يا أولادي الأعزاء، فليجذب كل منكم قوسه، وليطلق سهمه، وستكون له زوجة حيث يقع السهم»[2].

سقط سهم التساريفيتش الأكبر في بيت «البويار»، بالضبط أمام «التيريم» حيث تعيش النساء؛ وحطّ سهم التساريفيتش الثاني

---

(1) التسارستفو: هي المقاطعة التابعة للقيصر، لقب الحاكم الأعلى في روسيا. كلمة قيصر، مشتقة من الكلمة الرومانية الدالة على اللقب ، Caesar، ويمكن ترجمتها بكلمة إمبراطور أو ملك أو أمير. اشتُقت مفردات عديدة من الكلمة عبر إضافة مقاطع لفظية مختلفة: تساريفيتش: ابن القيصر، أمير؛ تساريفنا: ابنة القيصر، أميرة؛ تساريتزا: زوجة القيصر، ملكة أو إمبراطورة (المؤلفة).

(2) كانت كلمة « بويار» تستعمل في السابق للدلالة على الرجل الروسي من طبقة النبلاء، وبالتالي فبيت البويار هو بيت الإقطاعي؛ والبوياريشنيا: هي ابنة الإقطاعي. أما «التيريم» فهو عبارة عن جزء من بيت «البويار» تقع فيه غرف النساء (المؤلفة).

على الشرفة الحمراء لمنزل تاجر ثري، حيث وقفت ابنته الرقيقة. أما الأصغر، أي التساريفيتش الشجاع إيفان، فكان حظه عاثراً إذ وقع السهم في وسط مستنقع أمام ضفدعة نقاقة.

فقصد إيفان والده متذمراً: «كيف يمكنني الزواج من ضفدعة. وهل هي ندّ لي؟ بالطبع لا».

أجاب الوالد: «دعك من هذا، عليه أن تتزوج من الضفدعة، إذ من الجليّ أن هذا هو قدرك».

هكذا تزوج الإخوة الثلاثة: البكر من ابنة رجل نبيل، والثاني من ابنة التاجر الجميلة، والأصغر إيفان، من الضفدعة النقاقة.

وبعد مدة نادى الأمير الحاكم أبناءه الثلاثة وقال لهم: «فليطلب كل واحد منكم من زوجته أن تخبز رغيف خبز بحلول صباح الغد».

عاد إيفان إلى المنزل. وقد اختفت الابتسامة عن وجهه.

سألته الضفدعة بلطف: «ن-ي-ق! ن-ي-ق! يا زوجي العزيز إيفان، لمَ أنت حزين؟ هل حدث ما يضايقك في القصر؟».

أجاب إيفان: «يريدك والدنا القيصر[1]، أن تخبزي رغيفاً من الخبز الأبيض بحلول صباح غد».

«لا تقلق، يا إيفان. اذهب إلى فراشك، الصباح رباح وأفضل ناصح من الليل الحالك».

آخذاً بنصيحة زوجته، ذهب إيفان إلى النوم. وحينئذ نزعت الضفدعة جلد الضفادع عنها وتحولت إلى صبية جميلة، رقيقة، اسمها فاسيليسا. خرجت إلى الشرفة ونادت بصوت عال: «أيتها الوصيفات والخادمات، عليكن بالقدوم إلي حالاً، وأن تحضرن رغيفاً من الخبز الأبيض يكون مطابقاً لتلك الأرغفة التي كنت أتناولها في قصر والدي الملكي».

أفاق إيفان صباحاً مع صياح الديك. وتعلمون أن الديوك والدجاجات لا تتأخر عن موعدها قطّ.

مع هذا وجد الرغيف جاهزاً، وكان لذيذاً إلى درجة يعجز عنها الوصف، إذ أن أرغفة كهذه لا يمكن العثور عليها إلا في أرض الجن. وكانت مزخرفة كلها بأشكال جميلة، بصور

(1) في روسيا، هناك علاقة أبوية بين الحاكم وأفراد حاشيته، وهذه تظهر في عبارات مثل «الوالد القيصر»، «والدهم سيد» وغيرها. للغة الروسية الكثير من صيغ التصغير، أو تعابير التودد. مثلاً يسمى القيصر حباً «الوالد الصغير» من قبل رعيته (المؤلفة).

بلدات وقلاع على الجانبين، أما من الداخل فكانت بيضاء كالثلج وخفيفة كالريشة.

سُر القيصر الأب وتلقى إيفان ثناء خاصاً.

ثم ابتسم القيصر وقال: «الآن هناك مهمة أخرى. فلتحك كل من زوجاتكم بساطاً بحلول صباح الغد».

عاد إيفان إلى منزله مكفهر الوجه.

«ن–ي–ق ان–ي–ق! يا زوجي وسيدي إيفان، لِمَ أنت مغتّم مجدداً؟ ألم يكن والدك مسروراً؟».

«وكيف لا أكون مغتماً؟ لقد أمر والدنا القيصر بأن تحيكي بساطاً بحلول غد».

«لا تقلق، يا إيفان. اذهب إلى السرير. والصباح سيحمل لنا العون».

تحولت الضفدعة من جديد إلى فاسيليسا، العذراء الحكيمة، ونادت مجدداً بصوت عال: «يا مربياتي العزيزات، يا وصيفاتي الوفيات، تعالين إليّ من أجل مهمة جديدة. عليكن أن تحكن بساطاً حريرياً مثل ذلك الذي اعتدت الجلوس عليه في قصر والدي الملك».

ما إن نطقت بالأمر حتى كان ما أرادت. وعندما بدأت الديوك بالصياح «كيكي كيكي»، أفاق إيفان.. وانظروا ماذا وجد! وجد أمامه ناظريه أجمل بساط حريري، بساط لا يستطيع أحد حتى أن يبدأ بوصفه. بساط حيك من خيوط فضية وحريرية وذهبية زاهية الألوان، وكأنه صنع لمتعة النظر فحسب.

سرّ القيصر بالبساط، وأثنى على ابنه إيفان، ثم طلب أمراً جديداً، وهو أن يرى في اليوم التالي زوجات أولاده الوسيمين.

«ن-ي-ق!ن-ي-ق! يا زوجي العزيز وسيدي، لم الحزن؟ أسمعت ما لا يسر في القصر؟».

«بل الكثير مما لا يسرّ! فقد أمرنا والدنا القيصر بأن نحضر زوجاتنا إليه. الآن قولي لي، كيف أتجرأ وأذهب معك؟».

أجابت الضفدعة وهي تنق بنعومة: «بعد التفكير، ليس الأمر بهذا السوء، وكان الأمر ليكون أسوأ بكثير». وتابعت: «اذهب بمفردك وسوف أتبعك. وعندما تسمع جلبة كبيرة كبيرة، لا تخف، بل قل: هذه ضفدعتي البائسة قد جاءت في صندوقها البائس».

وصل الأخوان الكبيران أولاً برفقة زوجتيهما الجميلتين الذكيتين المرحتين اللتين لبستا ثوبين رائعين. وراح العريسان السعيدان يسخران من إيفان، قائلين: «لماذا جئت وحدك؟ لماذا لم تحضر زوجتك وملكتك معك؟ ألم تجد خرقة تكسوها بها؟ بالفعل أين كان بإمكانك العثور على مثل جمالها؟ نحن مستعدان للمراهنة انه سيكون صعباً العثور على مثلها لو بحثنا في كل مستنقعات البلاد». وضحكا طويلاً.

انظروا! أيّ ضجة هذه! ارتج القصر، وارتعب كل الضيوف.

وحده إيفان بقي هادئاً وقال: «لا تقلقوا، هذه ضفدعتي وقد جاءت في صندوقها».

وصلت إلى الشرفة الحمراء عربة ذهبية طائرة تجرها ستة جياد خلابة، ومدت فاسيليسا التي يفوق جمالها الوصف، يدها برقة إلى زوجها. فرافقها إلى الطاولات الثقيلة المصنوعة من خشب السنديان التي فردت عليها الشراشف البيضاء والعديد من الأطباق الشهية المعروفة التي لا تطبخ إلا في أرض الجنيات. راح الضيوف يأكلون ويتسامرون بفرح.

وقد شربت فاسيليسا بعض النبيذ، وسكبت ما بقي في الكأس في كمها الأيسر. ثم أكلت القليل من لحم البجع المقلي، ورمت العظام في كمها الأيمن. راقبتها زوجتا الأخوين وفعلتا مثلها بالضبط.

وعندما انتهى العشاء الأسري الطويل الحميم، بدأ الضيوف بالرقص والغناء. فتقدمت فاسيليسا الجميلة، البراقة كنجمة، وانحنت للقيصر، ثم انحنت للضيوف الشرفاء ورقصت مع زوجها، إيفان تساريفيتش السعيد.

وبينما ترقص، لوحت فاسيليسا بكمها الأيسر فظهرت بحيرة جميلة في وسط القاعة وبرّدت الجو. ثم لوحت بكمها الأيمن فسبحت بجعات بيضاء في المياه. أذهلت فاسيليسا الجميلة جميع من في القصر من ضيوف وخدم، وحتى القطة الرمادية المقعية في الزاوية. وراحت سلفتاها تحدجانها بحسد. وعندما أتى دورهما للرقص، لوحت كل واحدة منهما بكمهما الأيسر كما فعلت فاسيليسا، ويا للعجب! رشّت النبيذ في كل مكان. ثم لوحت بكمهما الأيمن، وبدلاً من البجع تطايرت العظام في وجه القيصر الأب. فغضب القيصر كثيراً وأمرهما بمغادرة القصر. بعد ذلك راح إيفان تساريفيتش يتحين فرصة سانحة كي ينسل بعيداً من دون أن يلاحظه أحد. ثم ركض باتجاه المنزل، فوجد جلد الضفدعة، وأحرقه بالنار.

عندما عادت فاسيليسا، بحثت عن الجلد، وعندما لم تستطع إيجاده، غرق وجهها الجميل بالحزن وامتلأت عيناها الرائعتان بالدموع. وقالت لزوجها: «أوه، يا عزيزي إيفان، ماذا فعلت؟ لم يكن قد تبقى لي سوى القليل من الوقت كي أخلع عني جلد الضفدعة البشع، وبعدئذ كنا سنعيش سعيدين إلى الأبد. أما الآن، فعلي أن أودعك. ابحث عني في بلد بعيد جداً لا يعرف أحد الطرق إليه، في قصر كوستشي الذي لا يموت». وسرعان ما تحولت فاسيليسا إلى بجعة بيضاء وطارت بعيداً من النافذة.

بكى إيفان بمرارة. ثم صلّى إلى الرب العظيم. وانطلق في رحلة غامضة.

لا أحد يعلم كم كانت رحلته طويلة، لكنه التقى ذات يوم رجلاً طاعناً في السن. انحنى احتراماً للشيخ الذي قال: «طاب يومك أيها الرفيق الشجاع. عمّ تبحث، وإلى أنت يقودك المسير؟».

أخبره إيفان بكل ما حدث معه، وشرح له سوء حظه من دون أن يخفي شيئاً.

«ولماذا أحرقت جلد الضفدعة؟ لقد ارتكبت خطأ. اسمعني الآن. لقد ولدت فاسيليسا وهي تتمتع بحكمة أكبر من والدها، وقد تملكته الغيرة من حكمة ابنته فحكم عليها أن تتحول إلى ضفدعة مدة ثلاث سنوات طوال. ولكنني أشفق عليك وأرغب في مساعدتك. خذه هذه الكرة السحرية. وانظر في أي اتجاه تتدحرج واتبعها من دون خوف».

شكر إيفان الشيخ الطيب، واتبع الكرة، دليله الجديد. وكانت طريقه طويلة، طويلة جداً. وذات يوم، صادف دباً روسياً ضخماً في حقل واسع مزهر. سحب إيفان قوسه واستعد كي يطلق سهمه على الدب.

فقال الدب: «لا تقتلني يا إيفان الطيب. من يعلم؟ قد أكون مفيداً لك». ولم يقتل إيفان الدب.

ثم طارت بطة بيضاء جميلة فوق رأسه. ومرة جديدة سحب إيفان قوسه كي يرديها. لكن البطة قالت له:

«لا تقتلني، يا إيفان الطيب. فسوف أكون مفيدة لك في يوم من الأيام».

فأطاع طلبها وأكمل سيره. وبينما يمشي لمح أرنباً برياً. فحضّر تساريفيتش سهمه كي يطلقه، لكن الأرنب الرمادي الغمّاز قال: «لا تقتلني، يا إيفان الشجاع، وسوف أثبت امتناني لك في وقت قصير».

لم يطلق إيفان سهمه على الأرنب، بل تابع مسيرته. وظلّ يتبع الكرة المتدحرجة، حتى وصل إلى البحر الأزرق العميق. فوجد سمكة مستلقية على الرمل. لا أذكر اسم السمكة، لكنها كانت سمكة كبيرة، تكاد تموت على الرمل الجاف.

رجته السمكة: «أوه يا إيفان الطيب، ارحمني وأعدني إلى مياه البحر الباردة».

فنفذ إيفان لها طلبها. ومشى بمحاذاة الشاطئ. أوصلت الكرة المتدحرجة إيفان إلى كوخ غريب صغير مثبت على قدم دجاجة صغيرة!

هتف إيفان: «إزبوشكا!إزبوشكا»، إذ هكذا يسمي الناس في روسيا الأكواخ الصغيرة. وتابع: «إزبوشكا، أريدك أن توجه صدر البيت ناحيتي أنا». وانظروا! أدار الكوخ البالغ الصغر بابه فوراً نحو إيفان الذي دخل ورأى ساحرة، بل واحدة من أبشع الساحرات التي يمكن أن تخطر على بال.

كانت التحية التي ألقتها عليه كالتالي:«هُوو! يا إيفان تساريفيتش! ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

صرخ إيفان بغضب: «أيتها الشيطانة العجوز. هل باتت أصول الضيافة في روسيا المقدسة[1] تقضي بطرح الأسئلة قبل أن تقدموا للضيوف المتعبين ما يأكلونه ويشربونه، وبعض الماء الساخن لغسل الغبار عنهم؟».

قدمت له الساحرة «بابا ياغا»[2] الكثير من الطعام والشراب، إضافة إلى الماء الساخن كي يغتسل من الغبار. أحس إيفان تساريفيتش بالانتعاش. وبعدها بقليل صار ذرب اللسان وحكى للساحرة حكاية زواجه الرائعة. وأخبرها كيف أضاع زوجته الحبيبة، وكيف أن رغبته الوحيدة تكمن في إيجادها.

أجابت الساحرة: «أعرف كل هذا. هي الآن في قصر كوستشي الذي لا يموت. وعليك أن تعرف أن كوستشي كائن رهيب. يراقبها ليل نهار ولا أحد يستطيع التغلب عليه. وموته لا يتم إلا من خلال إبرة سحرية. وهذه الإبرة موجودة عند أرنب

(1) روسيا المقدسة. يعتبر الروسي ان بلده مقدساً، وكل ما هو خارجي فانٍ بالمقارنة. تشير العبارة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (المؤلفة).
(2) بابا، امرأة مزارعة، أو الجدة أو القابلة. ياغا، ساحرة. هكذا تصبح بابا ياغا «الجدة الساحرة» (المؤلفة).

بري، وهذا الأرنب موجود في جذع شجرة ضخمة، والشجرة مخبأة بين أشجار سنديان قديمة؛ وكوستشي يراقب من كثب تلك الشجرة كما يراقب فاسيليسا نفسها، أي يبقيهما أقرب إليه من أي كنز يملكه».

ثم أخبرت الساحرة إيفان كيف وأين يستطيع أن يجد شجرة السنديان. أسرع إيفان نحو المكان. لكنه شعر بالإحباط عندما رأى شجرة السنديان، إذ لم يعرف ما عليه أن يفعله ومتى عليه أن يبدأ بالعمل. فجأة قال له الدب رفيق دربه القديم: «انظر وراقب»، واقترب راكضاً من الشجرة فاجتثها من جذورها. فخرج من الجذع أرنب بري وبدأ يعدو مسرعاً، لكن أرنباً آخر، هو صديق إيفان، أخذ يعدو خلفه فأمسكه ومزقه إرباً. وخرجت من الأرنب بطة رمادية طارت عالياً جداً حتى كادت تصبح لامرئية. لكن البطة الجميلة البيضاء تبعتها وضربت عدوتها الرمادية، التي أوقعت بيضة. وغاصت البيضة في البحر العميق. كان إيفان في هذه الأثناء يراقب متلهفاً أصدقاءه الأوفياء وهم يساعدونه. ولكن عندما اختفت البيضة في المياه الزرقاء لم يستطع منع نفسه من البكاء والنواح. فجأة برزت سمكة كبيرة إلى سطح الماء، كانت السمكة نفسها التي أنقذها، وكانت تحمل

البيضة في فمها. وكم كان إيفان سعيداً عندما أخذ منها البيضة! فكسرها ووجد في داخلها الإبرة السحرية التي يتوقف مصيره ومصير حبيبته عليها.

في اللحظة نفسها، خسر كوستشي كل قواه إلى الأبد. فدخل إيفان إلى مملكته الشاسعة، وقتله بالإبرة السحرية، وفي واحد من قصوره وجد زوجته العزيزة فاسيليسا. فعاد بها إلى المنزل وعاشا سعيدين إلى الأبد.

الإخوة السبعة

في إحدى الإمبراطوريات، وفي بلد خلف بحار وجزر، خلف الجبال العالية والأنهار الهدّارة، وفي موقع منبسط كأنه منشور فوق طاولة مسطحة، كان يقع بلد كبير يحكمه قيصر يدعى «أركيدي»، ابن «أجي»، ولذلك سمي بلده «أجيفيتش».

وقد اشتهر القيصر بذكائه وبوفرة لثروته وقوة محاربيه. واتسعت مملكته لتتكون من أربعين بلدة مضروبة بأربعين، تشتمل كل واحدة منها على عشرة قصور بأبواب فضية وسقوف مذهّبة ونوافذ كريستالية رائعة.

أما مجلسه فتألف من اثني عشر حكيماً، كل واحد منهم له لحية طولها نصف ياردة ورأس مليئة الحكمة. ولم يكن يقول هؤلاء المستشارون سوى الحقيقة لوالدهم الحاكم، لأن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على الكذب عليه.

كيف يمكن لقيصر كهذا ألا يكون سعيداً؟ لكن الصحيح أن لا الثراء ولا الحكمة تؤمن السعادة عندما لا يكون القلب مرتاحاً، فحتى داخل القصور الذهبية تتألم القلوب المسكينة. وهكذا

كانت الحال مع القيصر أركيدي؛ فرغم ثروته وذكائه ووسامته لم يستطع العثور على عروس التي تناسب ذوقه، أو تضاهيه ذكاء وجمالاً. وكان هذا سبب حزنه وقلقه الدائمين.

وفي يوم من الأيام، جلس القيصر على عرشه الذهبي ينظر إلى الخارج ساهماً في أفكاره، حين رأى بحارة غرباء يرسون قبالة قصره. جر البحارة سفينتهم إلى رصيف الميناء، وأنزلوا أشرعتهم البيضاء، ورموا مرساتهم في البحر ثم القوا لوحاً خشبياً كبيراً وتوجهوا إلى الشاطئ. وقد تقدّمهم تاجر مسن، وكانت لحيته بيضاء توحي بالحكمة. فجأة خطرة على بال القيصر فكرة: «عادة ما يعلم البحارة الكثير من الأمور، ربما إن سألتهم قد أجد صدفة أنهم قد قابلوا أميرة جميلة وذكية في مكان ما، تناسبني أنا القيصر».

ومن دون أي تأخير، أمر بمناداة تجار البحر للمثول أمامه.

وسرعان ما ظهر البحارة في بلاطه، وانحنوا إجلالاً لإيقونات القديسين المعلقة في الزاوية، ثم انحنوا إجلالاً للقيصر ولمستشاريه الحكماء. أمر القيصر خدمه بتقديم شفة من النبيذ الأخضر القوي. شرب الضيوف النبيذ الأخضر القوي ومسحوا لحاهم بالمناشف المطرّزة. عندها توجه القيصر إليهم: «نحن نعلم أنكم، معشر

تجّار البحر، تبحرون في المياه الزرقاء وترون الكثير من الأمور الرائعة. أرغب في سؤالكم عن أمر ما، وعليكم أن تعطوني إجابة صريحة من دون غش ولا مراوغة».

أجاب الضيوف وهم ينحنون: «سمعاً وطاعة».

«حسنا، إذن، هل تستطيعون إخباري إن كنتم قد صادفتم في إحدى الإمبراطوريات أو الممالك أو الإمارات العظيمة صبية حسناء وحكيمة مثلي أنا قيصر أركيدي، تستطيع أن تصبح زوجتي، وأن تكون تساريتزا مناسبة لبلدي؟».

ارتسمت الحيرة على وجوه التجّار، وبعد صمت طويل أجاب كبيرهم: «بالفعل، لقد سمعت مرة أنه أبعد من البحر العظيم، وعلى جزيرة تسمى بوزان، هناك بلد رائع، وان حاكم ذلك البلد له ابنة تدعى هلين، وهي أميرة شديدة الجمال، بل أجرؤ على القول إنها لا تقل حسناً عن حضرتكم. كما أنها حكيمة؛ وقد حاول أحد الحكماء ذات مرة أن يحلّ أحجية طرحتها عليه، وتطلبه الأمر ثلاث سنوات، ومع ذلك لم يفلح في حلها».

«قل لي كم تبعد هذه الجزيرة، وكيف السبيل للوصول إليها».

أجاب التاجر المسن: «الجزيرة ليست قريبة. إذا اختار أحدهم أن يبحر في البحر الواسع فستستغرقه الرحلة عشر سنوات. كما أن الطريق إليها مجهولة لدينا. أكثر من هذا، حتى لو افترضنا أننا نعرف الطريق، لا يبدو أنه مقدر للأميرة هلين أن تكون عروستكم».

صرخ القيصر أكيدي بغضب: «كيف تجرؤ على لفظ تلك الكلمات، أيها الغبي ذو اللحية الطويلة!».

«فكر بالأمر بنفسك. إذا افترضنا أنك أرسلت موكباً إلى جزيرة بوزان. فسوف يتطلب الوصول إلى هناك عشر سنوات، وكذلك العودة، أي أن الرحلة بأكملها سوف تتطلب عشرين عاماً. وفي هذا الوقت حتى أجمل الأميرات تكون قد شاخت- وجمال الفتاة يشبه السنونو، ذلك الطائر العابر الذي لا يمكث طويلاً».

جعل كلام التاجر القيصر يفكر طويلاً. ثم قال للتجار: «حسناً. لكم شكري أيها الضيوف المحترمون. اذهبوا بحفظ الله، وتاجروا في أنحاء مملكتي وقد أعفيتكم من أي ضريبة. وسأحاول أنا أن أجد حلاً لمشكلة الأميرة هلين».

حيا التجّار القيصر ورحلوا.

مكث القيصر بلا حراك، وراح يقلب المشكلة في فكره ساعات طويلة لكنه لم يجد حلاً لها. فقال «سأموه عن نفسي وأمتطي الخيل في الحقول الواسعة، علّ الصيد ينسيني أساي، على أمل أن يأتي لي المستقبل بحلّ ما».

جاء الصقّارون، وأعلنت الأبواق الذهبية بفرح بداية الصيد، وسرعان ما أغفت الصقور تحت قلنسواتها المخملية، ومكثت بهدوء فوق أيدي الصيادين.

وصل القيصر أركيدي مع حاشيته إلى حقل فسيح ممتدّ. ووقف الصقارون ينتظرون شارة البداية لكي يطلقوا فيها صقورهم في السماء لكي تطارد طيور مالك الحزين ذات القوائم الطويلة والأجسام البيض.

الآن عليكم أن تعرفوا أن حكايات الجن سريعة لكن الحياة ليست كذلك. امتطى القيصر صهوة جواده ومضى مبتعداً لفترة طويلة، حتى وصل إلى واد أخضر. وبينما ينظر حوله، رأى حقلاً مزروعاً ومحروثاً بدأت سنابله الذهبية بالنضوج، وتوقف القيصر يتأمل المنظر بإعجاب.

ثم قال مستفسراً: «أحسب أن أصحاب هذا الحقل هم عمال مجتهدون، مزارعون صادقون مثابرون. أتمنى لو أن جميع حقول مملكتي مزروعة على هذا النحو، عندئذ لن يعرف شعبي الجوع، لا بل سيكون لدينا فائض من الحصاد نرسله خلف البحار ونقايضه بالذهب والفضة».

حينئذ أصدار القيصر أوامره بالاستقصاء عن هوية أصحاب الحقل. فسارع الصيادون وسائسو الخيل والخدم كلهم في كل الاتجاهات واكتشفوا سبعة شبان شجعان شديدي الوسامة وقد توردت خدودهم بالصحة والعافية. وجدوهم يتناولون العشاء على طريقة الفلاحين، أي يأكلون خبز الجاودار مع البصل ويشربون الماء الصافي، وقد ارتدوا بزات حمراء، تحيط بها عند العنق أشرطة ذهبية، وكانوا يشبهون بعضهم بعضاً إلى درجة يصعب تفريق واحدهم عن الآخر.

سألهم رسل القيصر: «من صاحب ذلك الحقل الذهبي؟».

أجاب الفلاحون السبعة الشجعان بفرح: «هذا حقلنا، نحن من حرثناه وبذرنا فيه القمح الذهبي».

«وأي نوع من الناس أنتم؟».

«نحن فلاحو القيصر أركيدي أغيفيتش. نحن مزارعون إخوة، أبناء والد واحد وأم واحدة. اسمنا جميعاً شمعون، إذاً كما ترون نحن سبعة شمعون».

نقل المبعوثون هذه الإجابة بأمانة إلى القيصر الذي رغب فوراً في مقابلة الفلاحين الشجعان، فأمر بإحضارهم لكي يمثلوا أمامه. حضر الإخوة السبعة وانحنوا أمامه. نظر القيصر إليهم بعينيه اللامعتين وسألهم: «من أنتم يا من زرعتم الحقل بمثل هذه العناية؟».

أجاب أكبر الإخوة: «نحن فلاحوك البسطاء، لا نملك أي حكمة، ولدنا من الوالد نفسه والوالدة نفسها، وجميعنا نحمل الاسم نفسه: شمعون. وقد علّمنا والدنا المسن أن نصلي إلى الله وأن نطيعه، أن ندفع الضرائب بأمانة، وأن نعمل ونجتهد بلا كلل ولا راحة. كما علّم حرفة لكل منا، إذ أن المثل يقول: صانع الحرفة سلطان مخفي. لكن تمنى علينا والدنا ألا ننسى حقولنا قطّ وأن نبقي حرفنا للأيام الصعبة، وأن نكون مسرورين ونكد في زراعة الأرض وحصادها. كما كان يقول لنا: إذا لم يهجر المرء الأرض الأم بل أولاها العناية الضرورية في كلّ موسم من المواسم، فعندئذ ستكافئه بسخاء وستغدق عليه بالوافر من الخبز، كما ستكون فراشه الأبدي المريح، حين يصير طاعناً في السن ويسأم الحياة».

أحبّ القيصر جواب الفلاح البسيط فقال له: «لكم مني كل الثناء أيها الإخوة الشجعان الصالحون، أنتم يا من تحرثون الأرض وتبذرون القمح وتحصدون الذهب. والآن أخبروني ما هي الحرف التي علمكم إياها والدكم؟».

قال شمعون الأول: «حرفتي لا تنطوي على حكمة كبيرة. إذا أمن لي جلالتكم المواد والعمال اللازمين فعندئذ يمكنني بناء عمود صخري أبيض يبلغ عباب السماء ويقف على أعتابها».

قال القيصر متعجباً: «هذا جيد بما فيه الكفاية، وأنت يا شمعون الثاني ما هي صنعتك؟».

أجاب الأخ الثاني بسرعة قائلاً: «حرفتي بسيطة. إذا بنى أخي عموداً صخرياً أبيض، فيمكنني تسلقه عالياً نحو السماء، فأرى من الأعالي جميع الإمبراطوريات والممالك تحت الشمس، وكل ما يجري في تلك البلاد الغريبة».

ابتسم القيصر وقال: «حرفتك كذلك ليست سيئة». والتفت إلى الأخ الثالث، وقال: «وأنت، يا شمعون الثالث، أي حرفة تجيد؟».

كان جواب الثالث جاهزاً أيضاً: «حرفتي بسيطة هي الأخرى، هي كما نقول حرفة فلّاح متواضع. فإذا احتجت جلالتك إلى السفن، يقوم أولئك الأجانب المتعلمون ببنائها لك وفقاً لما تمليه عليهم معارفهم. أما إن أمرتني بذلك فإنني أبني السفن بحركة أو اثنتين، وبكل بساطة. فتكون سفني نتيجة عمل فلاح بسيط. ولكن ما تبحره سفينة غريبة في سنة، تقطعه سفينتي في ساعة واحدة، وفي حين تحتاج السفن الأخرى عشر سنوات لكي تبلغ مكاناً معيناً، فإن سفينتي تبلغ المكان نفسه في غضون أسبوع واحد».

ضحك القيصر مسروراً: «حسناً، حسناً! وما حرفتك أنت، أيها الأخ الرابع؟».

انحنى الأخ الرابع إجلالاً وقال: «لا تحتاج حرفتي إلى الحكمة أيضاً. إذا بنى أخي سفينة لك، فيمكنني قيادتها في البحر، وإذا لاحقنا عدو أو هبّت عاصفة، أستطيع أن أمسك السفينة من مقدمتها السوداء وأن أغوص بها إلى الأعماق حيث الهدوء الأبدي؛ وبعد أن تهدأ العاصفة أو يبتعد العدو، أقودها من جديد إلى سطح الأزرق الواسع».

قال القيصر مستحسناً: «رائع! وأنت يا شمعون الخامس، ما حرفتك؟».

«حرفتي، يا سيدي القيصر، ليست مميزة، فأنا مجرّد حدّاد. لكن إذا أمرت معاليك ببناء ورشة حدادة لي، فيمكنني صنع سلاح يطلق النار من تلقاء نفسه، وحينئذ لا يعود من نسر في السماء أو وحش مفترس في مأمن من ذلك السلاح».

أجاب القيصر بسرور: «هذا ليس سيئاً أيضاً. والآن دورك يا شمعون السادس».

أجاب بتواضع: «حرفتي ليست حرفة حقاً. فإذا أطلق أخي النار على طائر أو وحش، بغض النظر عن المكان والزمان، فإنني أستطيع التقاطه قبل أن يقع أرضاً، وأتفوق بذلك على أفضل كلاب الصيد! فإذا وقعت الطريدة في البحر الأزرق، فيمكنني أن أجدها في قاع البحر، وإذا وقعت في أعماق الغابات الخضراء، فيمكنني أن أعرف مكانها ولو في منتصف الليل، وحتى إذا علقت في الغيم يمكنني الإتيان بها من هناك».

كان من البديهي أن يحب القيصر حرفة شمعون السادس كثيراً أيضاً. كلها كانت حرفاً بسيطة كما ترون، من دون أن تتطلب

أي حكمة أو غيرها، بل هي في حقيقة الأمر حرف مسلية. أحب القيصر كلام الفلاحين، وقال لهم: «شكراً يا فلاحيّ، يا حارثي الأرض الأوفياء. وقد قال والدكم صدقاً. فالحرفة الجيدة ليست عبئاً، بل نعمة. أريدكم أن تأتوا وتجربوا مهاراتكم في عاصمتي. فأمثالكم مرحب بهم على الدوام. وعندما يحين موعد حصاد الحبوب الذهبية وحزمها، ودرس الحنطة وحملها إلى السوق، فسوف أترككم تعودون إلى دياركم مع بركاتي الملكية».

عندئذ انحنى الإخوة السبعة إجلالاً للقيصر وقالوا: «إذا كانت هذه رغبة جلالتكم فنحن أتباعكم المطيعون».

في هذه اللحظة نظر القيصر إلى شمعون الصغير وتذكر أنه لم يسأله عن حرفته بعد، فقال: «وأنت، شمعون السابع، ما هي حرفتك؟».

«ليس لدي واحدة يا سيدي القيصر. لقد تعلمت حرفاً عدة، لكنها جميعاً لم تعد بالنفع عليّ، ورغم أنني أتقن جيداً أحد الأمور، إلا أنني لست واثقاً من أنه سينال إعجاب جلالتكم».

قال القيصر بلهجة آمرة: «فلتطلعنا إذن على سرّ هذه الحرفة».

«لا، يا سيدي القيصر! فلتعطني أولاً وعداً ملكياً بألا تأمر بقتلي بسبب موهبتي الفطرية، وأن تحيطني بعطفك، وعندئذ أكون مستعداً لإفشاء سري».

«طلبك مستجاب. أمنحك وعدي الملكي، وهو وعد حقيقي لا يُخلف، وأياً كان ما ستبوح به، فستحل رحمتي عليك».

ابتسم شمعون السابع لدى سماعه هذه الكلمات اللطيفة، ونظر حوله، ثم هز جديلة شعره وقال: «حرَفتي لا يقابل من يمارسها في ربوع مملكتك بالرحمة، لكنني لا أجيد سواها. وهي أن أسرق وأخفي وأمحو كل أثر لهذه السرقة. ليس من كنز أي كنز، ولو كان مسحوراً، وليس من مكان سري يعصى علي إن كان هدفي السرقة».

لم تكد كلمات شمعون السابع الوقحة تصل إلى أذني القيصر حتى استشاط غضباً، وصاح به: «لا! لن أعفو عنك بكل تأكيد، فأنت لص وسارق! سوف آمر بقتلك بقسوة! سوف آمر بأن تقيد بالأغلال وترمى في أحد سجوني تحت الأرض، حيث لن تجد من طعام سوى الماء والخبز، وذلك حتى تنسى حرفتك هذه!».

رجاه شمعون السابع: «أيها القيصر العظيم الرحوم، أجّلوا أوامركم. واستمعوا إلى كلام عبدكم الفلاح البسيط: يقول مثلنا الروسي ليس لصاً من لا يُقبض عليه، واللص ليس من يقوم بالسرقة بل من يحرّض عليها. ولو كانت نيتي السرقة لكنت قمت بها منذ زمن بعيد، ولكنت سرقت الكنوز ولما كان القضاة ليعترضوا على أخذ حصة صغيرة منها مقابل السكوت عني ولكنت بنيت قصراً من الصخر وعشت حياة الأثرياء. لكنني فلاح بسيط من أصول معدمة. أعرف ما يكفي عن كيفية السرقة لكني لن أفعلها. وإذا كانت رغبتكم في أن تتعلموا حرفتي فكيف يمكنني أن أخفيها عنكم؟ وإذا كنتم، بسبب هذه المعرفة الصادقة الفطرية، سوف تحكمون علي بالموت فما قيمة وعدكم الملكي؟».

فكر القيصر للحظة وقال: «لن آمر بقتلك الآن، إذ يسرني أن أمنحك بركتي. لكن من الآن فصاعداً، لن ترى نور الله ولا الشمس الساطعة ولا القمر الفضي. ولن تمشي بحرية قطّ في الحقول الواسعة، ولكنك يا ضيفي العزيز، سوف تسكن قصراً لا يدخله شعاع واحد من الشمس. خذوه أيها الحراس، وكبلوا ايديه ورجليه وقودوه إلى رئيس السجّانين. وانتم يا أيها الإخوة الستة، اتبعوني. لكم بركتي ومكافأتي. وابتداء من يوم غد سوف يعمل كل منكم لحسابي بحسب مواهبه ومهاراته».

تبع الإخوة الستة القيصر، بينما اقتاد الحراس الأخ السابع، الأصغر المحبوب، إلى سجن معتم، حيث قيدوه بالسلاسل الثقيلة.

أمر القيصر بإرسال النجارين والبنّائين والحدادين وكل أنواع الرجال العاملين إلى شمعون البكر. كما أمر بتزويده بالطوب والصخور والحديد والصلصال والإسمنت. وما إن تمّ ذلك، حتى بدأ الأخ الأكبر ببناء العمود، وبحسب مناهجه الفلاحية البسيطة تقدم بسرعة في عمله، ولم يهدر دقيقة واحدة بفضل طرق التركيب الذكية التي اعتمدها. وبعد مدة قصيرة بات العمود جاهزاً، وانظروا كم بلغ ارتفاعه الشاهق! وكيف امتد عالياً إلى عنان السماء.

تسلق شمعون الثاني العمود، ونظر من حوله، واستمع إلى كل الأصوات، ثم نزل. وأمره القيصر المتلهف لمعرفة كل شيء تحت الشمس، بأن يقدم له وصفاً لما رآه وهكذا كان. وأخبر الفلاح القيصر بكل الأمور الرائعة التي شاهدها حول العالم، واصفاً له وأخبره كيف يتحارب الملوك هنا وهناك، ودله على البلاد التي سادت فيها الحروب، وتلك التي يسود فيها السلام. وقد كشف شمعون الثاني من بين ما قاله عن أسرار عميقة

تخص بعض الملوك، جعلت القيصر يبتسم، أما الحاشية وقد تشجعت عندما رأت البسمة الملكية، فقد انفجرت بالضحك. في الأثناء بدأ شمعون الثالث بتنفيذ مهمته. فشمّر عن أكمامه، وحمل فأسه، ثم واحد، اثنان، وبلا أي جهد بنى مركباً. لكن أي مركب غريب كان! شاهد القيصر هيكله الرائع من الشاطئ وسرعان ما أعطى أوامره بالإبحار. انطلق المركب شاقاً عباب البحر كالصقر المجنّح الأبيض، بينما مدافع تطلق النار، وفوق السواري، وبدلاً من حبال الأشرعة تدلت أوتار راح الموسيقيون يعزفون عليها الألحان الوطنية.

وما إن خاض المركب الرائع في أعماق المحيط، حتى أمسك شمعون الرابع مقدمة السفينة فلم يعد لها أثر على السطح، بل غاصت إلى الأعماق كالصخرة الثقيلة. وبعد زهاء نصف ساعة استعان شمعون بقوة ذراعه اليسرى، ودفع السفينة إلى السطح الأزرق مجدداً، وقدم بيده اليمنى للقيصر سمكة حَفَش رائعة من أجل تحضير الـ«كوليبياكا»، أي فطيرة السمك الروسية الشهيرة.

وبينما كان القيصر يمتّع ناظريه بالمركب الرائع، بنى شمعون الخامس ورشة حدادة في القاعة الخلفية للقصر.

وهناك نفخ في الحديد وحماه. كانت الضجة الصادرة عن طرقات مطرقته مدوية، وكانت نتيجة عمله سلاحاً يطلق النار من تلقاء نفسه. ذهب القيصر إلى الحقول البرية ولمح نسراً يحلق في أعالي السماء.

أمر القيصر: «الآن! هناك نسر شارد يتأمل الشمس، أطلق النار عليه. قد يكون حظك جيداً وتصيبه، وعندها ستنال تكريمي».

ابتسم شمعون ووضع في بندقيته رصاصة فضية، ثم صوّب نحو الهدف وأطلق النار فسقط النسر فوراً باتجاه الأرض. ولم يدع شمعون السادس النسر يلمس التراب، وبحركة سريعة كالبرق ركض تحته حاملاً طبقاً، التقط الطريدة به وقدمها للقيصر.

ابتهج القيصر وقال: «شكراً، شكراً، يا رفاقي الشجعان، أيها الفلاحون الأوفياء. أرى بوضوح الآن أنكم جميعاً حرفيون ممتازون وأرغب في مكافأتكم. أما الآن فلنتناول العشاء ولننل قسطاً من الراحة».

انحنى الستة احتراماً للقيصر ثم غادروا. بعد أن جلسوا وابتلع كل واحد منهم رشفة من النبيذ الأخضر القوي، ثم رفعوا ملاعقهم الخشبية المدورة وهموا بالانقضاض على الـ«ستشي»،

أي شوربة الملفوف الروسية، عندها انظروا! جاء مهرج القيصر راكضاً، تهتز قلنسوته المخططة ذات الأجراس المدورة، وهو يصرخ: «أيها الموجيك[1] السذج، والفلاحون الأميون، أتتناولون العشاء بينما القيصر يسأل عنكم؟ اذهبوا إليه فوراً!».

راح الستة يركضون إلى القصر، مفكرين في أنفسهم: «ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟». وقف الحراس أمام بوابة القصر بهراواتهم الحديدية؛ واحتشد الحكماء وعلية القوم في القاعات، وجلس القيصر نفسه على عرشه وقد بدا متجهمًا غارقاً في التفكير.

عندما اقترب الفلاحون قال: «اسمعوني أيها الإخوة الشجعان، وأنتم أيضاً أيها المستشارون الحكماء، إن مهارتك يا شمعون الثاني تمكّنك من رؤية كل ما يحدث تحت الشمس، فعليك أن تتسلق فوراً ذلك العمود القائم وتنظر من حولك لترى إن كانت هناك، كما يقولون، وراء البحر العظيم، جزيرة تُدعى بوزان. وانظر إن كان هناك، كما يؤكد الرجال، مملكة جبارة، وإذا كان يحكمها ملك جبار، وإذا كان هذا الملك، كما تكمل القصة، له ابنة اسمها هلين، وأنها بالفعل أجمل الأميرات».

(1) وصف للفلاح الأجير في الأرض (المؤلفة).

انحنى شمعون الثاني وركض سريعاً، حتى إنه نسي أن يعتمر قلنسوته. تسلق العمود مباشرة، نظر من حوله، نظر، وهذا كان تقريره:

«أيها القيصر العظيم، لقد نفذت أمنيتكم التي ما فوقها أمنية. فنظرت أبعد من البحر بكثير ورأيت جزيرة بوزان. جبّار هو الملك هناك، وهو معتدّ بنفسه لا يعرف الرحمة. يجلس في قصره ويردد دائماً الكلام نفسه: أنا ملك عظيم ولي أجمل ابنة، الأميرة هلين التي ليس ثمة في الكون كله من هو أجمل وأكثر حكمة منها، وليس من عريس يستحقها في أي مكان تحت السماء الساطعة، سواء أكان قيصراً أم ملكاً أم أميراً. لن أزوج ابنتي الأميرة هلين إلى أي كان، ومن يجرؤ على التودد منها، فسأعلن الحرب عليه وأزهق روحه».

عندئذ سأله القيصر: «وما مدى عظمة جيش هذا الملك؟، وكم هي بعيدة مملكته من مملكتي؟»

أجاب شمعون: «حسناً، بحسب ما رأيت، أقدّر أن يتطلب الأمر من سفينة مبحرة عشر سنوات إلا يومين اثنين للوصول، وإذا حدث وكان الجو عاصفاً، فأخشى أن

الرحلة ستتطلب أكثر من عشر سنوات. كما أن ذلك الملك لديه جيش يضمّ مئة ألف من رماة الرماح، ومئة ألف من جند المشاة، ومئة ألف أو أكثر من الخدم والأتباع الذين يمكن تجنيدهم من أنحاء المملكة».

غرق القيصر في الصمت طويلاً، وأخيراً خاطب الجمع في باحة قصره:

«يا محاربي ومستشاري، ليس لدي سوى أمنية واحدة. أريد أن تصبح الأميرة هلين زوجتي. لكن أخبروني، كيف السبيل إليها؟».

بقي المستشارون الحكماء صامتين، كل يواري نفسه خلف الآخر. نظر شمعون الثالث حوله، ثم انحنى للقيصر وقال: «أيها القيصر العظيم، اغفروا كلماتي البسيطة. لا داعي للقلق بشأن الوصول إلى جزيرة بوزان. بل تفضلوا بالصعود إلى مركبي البسيط الذي يستطيع أن يقطع في يوم، أو فلنقل في أسبوع، ما يقطعه مركب آخر في سنة. يبقى فقط سؤال المستشارين الحكماء إن كان يجب أن نحارب للحصول على الأميرة الجميلة، أم أنه علينا أن نجد طريقة ما للإتيان بها إلى هنا بهدوء».

توجّه القيصر إلى مستشاريه: «أيها المستشارون العقلاء، ما سيكون قراركم؟ من بينكم سيذهب لكي يحارب من أجل الأميرة، ومن سيكون داهية ويحضرها إلى هنا بسلام؟ سوف أغمر من يفعل ذلك بالذهب والفضة وسوف أمنحه الرتبة الأولى بين الأوائل».

مجدداً، بقي المحاربون الأشداء والمستشارون العقلاء صامتين. غضب القيصر، وبدا موشكاً على النطق بأفظع الكلام. عندئذ، وكأن أحدهم سأله رأيه، قفز المهرّج من خلف الحكماء، وهز قلنسوته السخيفة المخططة، فرنت أجراسه الكثيرة وصاح: «لِمَ أنتم صامتون أيها الرجال الحكماء؟ لِمَ هذا الإغراق في التفكير؟ لكم رؤوس كبيرة ولحى طويلة، وتوحي أشكالكم بامتلاككم الكثير من الحكمة، فلماذا لا تظهرونها؟ لا يعني الذهاب إلى بوزان وإحضار العروس خسارة الذهب أو الجنود. أنسيتم شمعون السابع؟ سيكون من السهل عليه أن يسرق الأميرة هلين. بعدها دعوا ملك بوزان يأتي إلى هنا كي يحاربنا، وسوف نرحب به ضيفاً مكرماً. ولا تنسوا أن وصوله إلينا يتطلب عشر سنوات، وخلال هذا الوقت—آه يا أنا! لقد سمعت أن رجلاً حكيماً درّب الحصان على النطق خلال عشر سنوات!».

تعجّب القيصر وقال متناسياً حتى غضبه: «رائع! رائع! أشكرك أيها المهرج. وسوف أكافئك بكل تأكيد، سوف تمنح قلنسوة جديدة بأجراس رنانة، وسيحصل كل واحد من أولادك على فطيرة محلاة مع الزنجبيل. أنتم، أيها الحراس الأوفياء، ائتوني فوراً بشمعون السابع».

فُتحت الأبواب الحديد الضخمة للسجن المظلم بناء لأمر القيصر، ورفعت السلاسل الثقيلة، ومثل شمعون السابع أمام عيني القيصر المتلهفتين، الذي توجه إليه بالقول: «اسمعني جيداً يا شمعون السابع، أنا على وشك منحك شرفاً رفيعاً، يقيك البقاء طول عمرك في سجني. فإذا أثبت جدارتك وجدواك، فسوف أمنحك الحرية، وأكثر من ذلك، سوف أعطيك حصة من كنوزي. هل تمكنك حرفتك من أن تسرق الأميرة الجميلة هلين من والدها، ذلك الملك العظيم لجزيرة بوزان؟».

ضحك شمعون السابع بفرح وقال: «ولم لا؟ لا يوجد أيّ صعوبة في هذا. هي ليست لؤلؤة، ولا أعتقد أن أقفالاً عديدة موصدة عليها. كل ما أريده من جلالتكم أن تأمروا بملء السفينة التي بناها أخي من أجلكم بالمخمل والأقمشة المطرزة، وبالسجاد العجمي واللآلئ الرائعة والحجارة الكريمة، ومروا إخوتي الأربعة بالمجيء معي. لكن ابقوا أخوي الكبيرين عندكم كضمانة».

فور النطق بالأوامر، جرى تنفيذها. إذ أعطى القيصر أوامره وسط ركض الجميع صعوداً ونزولاً، ونفذ كل شيء بسرعة البرق حتى إن فتاة قصيرة الشعر ما كانت لتحظى بالوقت الكافي لتجدل شعرها فيه! جُهّزت السفينة المُحملة بالكنوز والسلع الثمينة. ثم انحنى الإخوة الخمسة إجلالاً للقيصر، وركبوا سفينتهم واختفوا خلف الأفق.

عامت السفينة بخفة فوق المياه الزرقاء، وطارت كالصقر مقارنة مع مراكب التجّار البطيئة. وخلال أسبوع من مغادرة شمعون الخمسة بلدهم الأم وقع بصرهم على جزيرة بوزان.

بدت الجزيرة محاطة بالمدافع التي وزعت بكثافة، بينما انتشر حراس عمالقة يمشطون الشاطئ صعوداً نزولاً وهم يفتلون بقوة شواربهم الكثة. وما إن لاحت لهم السفينة من برج المراقبة، حتى صاح أحدهم ببوقه الهولندي[1]: «قفوا عندكم! من أنتم؟ وماذا جئتم تفعلون هنا؟».

أجاب شمعون السابع من السفينة: «نحن أناس مسالمون، لسنا أعداءكم بل أصدقاءكم، يرحب الجميع بالتجار كالضيوف

(1) بوق مستورد. كل ما هو غريب يعد «هولندياً» بالنسبة إلى المزارع الروسي (المؤلفة).

أينما حلّوا. نحن نحضر بضاعة من الخارج. نريد أن نبيع ونشتري وأن نقايض. ولدينا هدايا لمللككم من أجل الكوروليفنا[1]».

أنزل الإخوة الخمسة الشجعان أحد قواربهم من السفينة، وحمّلوه بالستائر المخملية المختارة بعناية، وبالأقمشة المطرزة واللالئ والأحجار الكريمة، ووضعوا فوق هذا كله السجاد العجمي. أوقفوا القارب على رصيف الميناء، بالقرب من القصر، وحملوا في الحال هداياهم إلى الملك.

كانت الكوروليفنا الجميلة تجلس في «التيريم» خاصتها. كانت صبية جميلة تشع عيناها كالنجوم ويشبه حاجباها الفرو الثمين. كانت مجرد نظرة منها إلى أحدهم بمثابة الهدية النادرة، وعندما تمشي فكأنما هي بجعة تسبح. وقد لاحظت الكوروليفنا بسرعة الإخوة الشجعان الوسيمين ونادت فوراً على مربياتها ووصيفاتها.

«أسرعن أيتها المربيات والوصيفات، واعرفن أي نوع من الغرباء هم هؤلاء الذين قدموا إلى قصرنا».

(1) كوروليفيتش، من كورول: ملك. الكلمات التي تنتهي بـ«إيفيتش» و«غيفنا» تظهر النسب. كوروليفيتش تعني ابن الملك، وكوروليفنا تعني ابنة الملك.

خرجت كل المربيات والوصيفات وفي جعبتهن أسئلة جاهزة. أجابهن شمعون السابع: «نحن تجار ضيوف، أناس مسالمون. أرضنا الأم هي بلد القيصر أركيدي أجيفيتش، وهو قيصر رائع بالفعل. جئنا لكي نبيع ونشتري، وقبل كل شيء لدينا هدايا للملك وأميرته. نتمنى أن يتفضل الملك علينا ويقبل هدايانا التافهة، إن لم يكن من أجل شخصه الكريم فعلى الأقل من أجل صبايا مملكته الحسناوات».

عندما سمعت هلين هذه الكلمات أذنت للتجار بالدخول فوراً. ظهر التجار، وانحنوا إجلالاً للأميرة الجميلة، ثم بسطوا المخمل المبهرج والأقمشة الذهبية المطرزة، ونثروا حولهم اللآلئ والأحجار الكريمة التي لم يسبق لعين في بوزان أن رأت مثلها. وقفت المربيات والوصيفات فاغرات الأفواه من شدة الذهول، وكانت الأميرة نفسها بالغة السرور. ابتسم شمعون السابع الحاضر البديهة وتوجه إليها بالقول: «كلنا نعلم أن حضرتك تتمتعين بالحكمة والجمال، ولكن لابد من أنك الآن تضحكين منا. فكل هذه المتاع هي شديدة البساطة ولا تصلح لاستعمالك الخاص. ولكن اقبليها منا لأجل المربيات والوصيفات وخذي الأثواب الفاخرة للاستعمال اليومي، وأرسلي هذه الحجارة

الكريمة إلى خدام المطبخ لكي يلهوا بها. ولكن اسمحي لي أن أقول لك إن سفينتنا تحوي مختلف أنواع والأقمشة المطرزة، وفيها من الحجارة الكريمة ما لم تره عين من قبل، لكننا لم نحضرها لخشيتنا ألا تناسب ذوقك الرفيع. فإذا قررت زيارتنا شخصياً فإن ما ستختارينه من بضائعنا، سيكون لك، وسننحني شاكرين البريق الرائع لعينيك الجمليتين».

أحبت الأميرة كلمات شمعون الوسيم المهذبة هذه، فتوجهت نحو والدها: «يا والدي وملكي، لقد أتى تجار غريبون لزيارتنا، وأحضروا معهم بعض البضائع التي لم يسبق لأحد أن رأى مثلها في بوزان. امنحني الإذن لكي أذهب إلى سفينتهم الرائعة وأتخيّر ما أريد من الأشياء الرائعة، كما أن في جعبتهم هدايا ثمينة من أجلك».

تردد الملك قبل أن يجيب، وقد تجهم وجهه وأخذ يحك خلف أذنه: «حسناً، فليكن ما تريدين يا ابنتي الجميلة. وأنتم أيها المستشارون، فلتأمروا بتجهيز مركبي الملكي، وبحشو المدافع، ولتجعلوا مئة من أشجع المحاربين يرافقوا العربة. ووزعوا على جانبي الطريق ألف محارب مدجج بالأسلحة لحراسة الكوروليفنا في طريقها إلى مركب التجار».

عندها انطلق موكب الملك من جزيرة بوزان، وسط مئات المحاربين الذين يحمون الأميرة، وبقي والدها الملك مطمئناً في منزله.

عندما وصلوا إلى مركب التجّار، ترجلت الكورليفنا هلين، وفوراً أنزل الجسر الكريستالي فصعدت هي وكل مربياتها ووصيفاتها إلى متن المركب الغريب، هذا المركب الذي لم يسبق أن شاهدن مثله من قبل، ولا حتى أن في المنام. بينما بقي الحرّاس يراقبون.

اصطحب شمعون السابع الضيفات الجميلات في جولة حول المركب، وعرض عليهن بلسان ذرب بضائعه القيمة. وأصغت الكورروليفنا بانتباه، بينما تتلفت حولها بحشرية، وبدا الكل مسروراً.

في اللحظة نفسها، كان شمعون الرابع يتحيّن اللحظة المناسبة، فأمسك مقدمة السفينة وسحب السفينة إلى أعماق المحيط الغامضة حيث لا يمكن لأحد رؤيتها. صرخ الناس على مركب الملك مرعوبين، وبدا المحاربون كالأغبياء السكارى، واكتفى الحراس بفتح عيونهم أكثر مما كانوا يفعلون قبلاً. ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا؟ عادوا بمركبهم إلى الجزيرة ومثلوا أمام الملك مع قصتهم المروعة.

«أوه، يا ابنتي، يا أميرتي الغالية هلين! هو الله يعاقبني على كبريائي. لم أردك أن تتزوجي. لم أكن أرى أميراً ولا ملكاً جديراً بك؛ والآن، أوه! الآن أعلم أن تحفتي زُفّت إلى قاع البحر، وسوف أبقى وحيداً طوال ما تبقى من حياتي الشقية».

وفجأة نظر حوله وصرخ برجاله: «أيها الأغبياء! بمَ كنتم تفكرون؟ سوف أقطع رؤوسكم جميعاً! أيها الحراس أرموهم في الزنزانات! سوف تكون ميتتهم الأفظع، ميتة يرتعد لقصتها أحفاد أحفادهم!».

الآن، بينما كان ملك بوزان يهذي حزناً على ابنته، سبح مركب الإخوة شمعون برشاقة سمكة ذهبية تحت المياه الزرقاء، وعندما اختفى المركب عن مرأى الجزيرة أرجع شمعون المركب إلى السطح فبدا كنورس مجنّح أبيض. في هذا الوقت بدأت الأميرة بالقلق لأنها تأخرت على العودة إلى منزلها، فاستفسرت: «أيتها المربيات والوصيفات، نحن ننظر باستمتاع من حولنا، ولكني أخشى أن والدي الملك سيجد هذا الوقت طويلاً بشكل محزن». ثم أسرعت باتجاه ظهر المركب، وعجباً ما شاهدته! وحده البحر الواسع يحيط بها كالمرآة! أين بلدها الأم؟ أين المركب الملكي؟ لم يكن هناك على امتداد النظر سوى البحر الأزرق. صرخت

الأميرة، ضاربة بيديها على صدرها، ثم حولت نفسها إلى بجعة وطارت عالياً في السماء. لكن شمعون الخامس، الذي كان يراقبها بدقة، لم يضيّع الوقت، فاستل مسدسه البارع وأطلق النار على البجعة البيضاء. ثم التقط أخوه شمعون السادس البجعة البيضاء، لكن انظروا! عوض البجعة البيضاء كانت هناك سمكة فضية انزلقت منه بعيداً. التقط شمعون السمكة، غير أن السمكة الفضية الجميلة هذه سرعان ما تحولت إلى فأرة صغيرة أخذت تركض في أنحاء السفينة. ولكن لم يدعها شمعون تصل إلى أي جحر لكي تختفي فيه، بل بحركة أرشق من هر، أمسك بالفأرة. هكذا عادت الأميرة هلين الجميلة وظهرت طبيعية كما من قبل، بوجهها الجميل وعينيها اللامعتين.

ذات صباح جميل وبعد أسبوع من الحادثة، كان القيصر أركيدي جالساً وراء نافذة قصره تائهاً في أفكاره، وقد هامت عيناه في البحر الواسع الأزرق، وقد ملأ الحزن كيانه ولم يعد راغباً في الأكل، فلم تغره الولائم العامرة، والأطباق الغالية باتت بلا طعم. كانت كل أفكاره ومشاعره تتوق إلى الأميرة هلين، هلين الجميلة، هلين وحدها.

ما هذا الشيء السابح بعيداً فوق المياه؟ أهو نورس أبيض؟ وهذان الشيئان أهما جناحان أم شراعان؟ لا، هذا ليس نورساً، بل هي سفينة الإخوة شمعون، وكانت تقترب بسرعة الريح الذي يدفع أشرعتها، بينما مدافعها تدوي وترتفع الألحان الوطنية من حبال الصواري. بعدها بقليل رست السفينة، تم تحضير الجسر الكريستالي وظهرت الكوروليفنا هلين الأميرة الجميلة، كما الشمس التي لا تغيب أبداً، عيناها كالنجوم وأوه! كم كانت كبيرة سعادة القيصر أركيدي!

«اركضوا سريعاً يا خدّامي الأوفياء، وأنتم يا ضباط الدولة الشجعان، وأنتم أيضاً يا حراسي، وأنتم يا مرافقي النافعين منكم والحاضرين كالزينة في القصر، أسرعوا وحضروا للاحتفال، أطلقوا الألعاب النارية واقرعوا الأجراس كي تحظى الكوروليفنا هلين بترحيب يليق بها».

فتحت بوابات القصر لاستقبال الكوروليفنا استقبالاً مشرفاً. وحتى القيصر نفسه خرج ليلاقي الأميرة الجميلة، أمسك يديها البيضتان وساعدها كي تصل إلى القصر.

قال القيصر أركيدي: «أهلاً! أهلاً، أيتها الكوروليفنا هلين لقد سمعت عنك ولكني لم أكن لأتخيل قط جمالاً بمثل جمالك. ولكن، برغم أني معجب بك، لا أريد أن أفصلك عن والدك. قولي كلمة واحدة وسيرجعك خدّامي الأوفياء إليه. أما إذا اخترت البقاء في مملكتي، فستكونين التساريتزا الحاكمة لبلدي ولقلبي أيضاً، أنا القيصر أركيدي».

حين نطق القيصر بهذه الكلمات، رمقته الكوروليفنا هلين بنظرة أشعرته أن الشمس تضحك والقمر يغني والنجوم تتراقص من حوله.

حسناً، ماذا هناك كي يضاف؟ تستطيعون بكل تأكيد تخيّل الباقي. سرعان ما بدأت المغازلة بينهما وأقيمت مأدبة الزفاف، إذ كما تعلمون فالملوك لديهم كل شيء رهن إشارتهم. وسرعان ما أوصل الإخوة شمعون للملك بوزان رسالة من الكوروليفنا، ابنته، وهذا ما كتبته: «والدي العزيز، الملك العظيم الحاكم: لقد وجدت زوجاً يوافق رغبة قلبي وأنا أسألك بركتك الأبوية. زوجي، القيصر أركيدي أجيفيتش، يرسل إليك مستشاريه، ويرجوك أن تأتي إلى عرسنا».

وفي اللحظة نفسها التي كانت سفينة التجار تستعد كي ترسو بمحاذاة اليابسة في جزيرة بوزان، كانت جموع الناس تستعد لتشهد على إعدام الحراس السيئي الحظ والمحاربين الأشداء الذين كانوا في الخدمة عندما اختفت الأميرة ولم يقدروا على منع ذلك لسوء طالعهم.

صرخ شمعون السابع بصوت عال من ظهر المركب: «توقفوا! في جعبتنا رسالة خطية من الكوروليفنا هلين!».

كان ملك بوزان شديد السعادة بالفعل، وأحس بالمثل كل تابعيه. قرئت الرسالة وأعفي عن المحكومين.

قال الملك: «من الواضح، أن قدر القيصر أركيدي الوسيم والذكي وابنتي الجميلة أن يصبحا زوجاً وزوجة».

عندها عامل الملك المبعوثين والأخوة شمعون بطريقة لائقة وأرسل بركاته معهم، فهو شخصياً لم يكن يرغب بمغادرة الجزيرة لأنه هرم جداً. عادت السفينة بسرعة. وجلس القيصر أركيدي برفقة عروسه الجميلة على متنها وسرعان ما استدعى الإخوة شمعون السبعة.

قال لهم: «شكراً لكم! شكراً لكم! يا فلاحي، يا حارثي التربة. خذوا قدر ما تشاؤون من الذهب. خذوا الفضة أيضاً واطلبوا كل ما يشتهيه قلبكم. كل شيء سوف يسلَّم إليكم بيدي العظيمتين. إن أردتم أن تصبحوا من النبلاء، فستكونون الأعظم بينهم. وإن اخترتم أن تصبحوا حكاماً، فستكون لكلّ منكم بلدته».

انحنى شمعون الأول أمام القيصر وأجاب بفرح: «شكراً لكم، أيها القيصر العظيم. ولكننا أناس بسطاء وطرقنا في العيش بسيطة. لن ينفعنا أن نصبح من النبلاء أو الحكّام. لا نهتهم لأمر الكنوز أيضاً. لدينا حقل والدنا الذي سيبقى يمدنا بالخبز إن جعنا والمال إن احتجنا. اسمحوا لنا بالعودة إلى بلادنا، آخذين كلماتكم الكريمة كمكافأة. وان اخترتم أن تزيدوا في كرمكم، امنحونا أمركم الذي يعفينا من القضاة جباة الضرائب، وإن اتهمنا يوماً في أمر ما فلتكونوا انتم وحدكم القاضي. ونحن نرجوكم، أن تسامحوا صغيرنا شمعون السابع، إن حرفته سيئة بكل تأكيد، لكنه ليس أول، وبالتأكيد لن يكون آخر من يحوز هذه الموهبة».

قال القيصر: «فليكن ما تريدون».

الآن، أيتها السيدات والسادة، لا تحكموا على قصتي بصرامة. إن أعجبتكم فأثنوا عليها، وإن لم تعجبكم فانسوها. فالكلمة كالعصفور الدوري، ما إن تخرج مرة حتى تكون قد خرجت إلى الأبد.

لغة الطيور

عاش تاجر غني مع زوجته في قرية من قرى روسيا. أنجبا طفلاً وحيداً أسمياه إيفان وسرعان ما شبّ فتى لامعاً وشجاعاً. وذات يوم جميل جلس إيفان إلى مائدة العشاء مع والديه. وكان ثمة قفص يتدلى بالقرب من الشباك في الحجرة نفسها، وفي داخله عندليب رمادي اللون رائع الصوت. بدأ العندليب الرقيق يصدح بألحانه الذهبية الرائعة. وبعد أن استمع التاجر إلى غنائه قال: «كم أتمنى لو أعرف معنى الأغاني المختلفة التي تنطق بها كل الطيور! كنت لأعطي نصف ثروتي لمن يفسّر لي الألحان المتنوعة التي تشدو بها العصافير».

علقت هذه الكلمات في ذهن إيفان، ومنذ ذلك الحين وهو يفكر بكيفية تعلمه لغة الطيور حيثما ذهب، أينما كان ومهما كان يفعل.

حدث بعد مدة أن ذهب إيفان للصيد في الغابة. فعصفت الريح وتجهمت السماء بالغيوم ولمع البرق وزمجر الرعد وتساقط

المطر كالفيضانات. لجأ إيفان إلى شجرة كبيرة، ولمح عشاً كبيراً بين أغصانها، وفي داخل العش رأى أربعة فراخ صغيرة؛ كانت كلها هادئة وحيدة، من دون أب ولا أم لحمايتها من البرد والبلل. فأشفق إيفان الطيب على الفراخ، وتسلق الشجرة وغطى الصغار بقفطانه، وهو معطف طويل مخطط يلبسه الفلاحون والتجار الروس عادة. مرت العاصفة على خير وأتى طائر كبير محلقاً وجلس على أحد أغصان الشجرة بالقرب من العش وتكلم بلطف مع إيفان:

«أشكرك يا إيفان؛ لأنك بفعلتك هذه حميت أطفالي الصغار من البرد والمطر وأتمنى لو أني استطيع أن أرد الجميل. قل لي ماذا تريد».

أجابه إيفان: «لست في حاجة إلى شيء من متاع الدنيا، فلديّ كل ما أرغب فيه. لكنني أريد أن أتعلم لغة الطيور».

أجابه: «ابق معي ثلاثة أيام وسوف أعلمك كل ما يتعلق بهذه اللغة».

بقي إيفان في الغابة ثلاثة أيام، استوعب خلالها كل تعاليم الطائر الكبير وعاد إلى البيت أكثر ذكاء ومعرفة من قبل. بعدها

بمدة قصيرة، وذات يوم جميل، كان إيفان جالساً مع والديه عندما بدأ العندليب يغني في القفص. وكانت أغنيته حزينة جداً، مغرقة في الشجن إلى درجة أن الحزن استولى على التاجر وزوجته أيضاً، وعلى ولدهما إيفان الطيب، الذي كان حتى أكثر تأثراً، وبدأت الدموع تنهمر على خديه.

سأل والداه: « ما الأمر؟ ما الذي يدفعك إلى البكاء يا ابننا العزيز؟».

أجاب الصبي: «يا والديّ العزيزين، أبكي لأنني أفهم معنى أغنية العندليب، ولأن تفسيرها محزن لنا جميعاً».

فقال الوالدان: «وما هو المعنى إذن؟ أخبرنا كل الحقيقة، لا تخف عنا شيئاً».

رد الصبي: «أوه، كم الأمر محزن. كم كان ليكون أفضل لو أني لم أولد أصلاً».

أجاب الوالدان وقد اعتراهما القلق: «لا تخفنا أكثر من ذلك. إذا كنت تفهم حقاً معنى الأغنية فأخبرنا فوراً».

«ألا تسمعاه بنفسيكما؟ يقول العندليب: سوف يأتي يوم يصبح فيه إيفان ابن التاجر، إيفان ابن الملك، وسوف يخدمه والده بنفسه مثل أي خادم بسيط».

ارتبك التاجر وزوجته وبدآ يفقدان الثقة بابنهما إيفان الطيب. وذات ليلة سقياه شراباً منوِّماً، وعندما غط في النوم أخذاه إلى قارب في البحر الواسع، ورفعا أشرعته ودفعا بالقارب بعيداً عن الشاطئ.

تأرجح القارب طويلاً فوق الأمواج حتى وصل أخيراً إلى محاذاة مركب تاجر كبير، اصطدم فيه بضربة قوية إلى درجة أيقظت إيفان من نومه. وقد رأى طاقم المركب الكبير إيفان وأشفقوا عليه وقرروا أن يأخذوه معهم وهكذا كان. عالياً، عالياً جداً في السماء لمحوا طيور الكُركي. فقال إيفان للبحّارة: «احذروا، اسمع الطيور تتنبأ بعاصفة. دعونا ندخل إلى أحد المرافئ وإلا فسنخوض غمار الخطر ونعاني من خسائر فادحة. سوف تتمزّق كل الأشرعة وتتحطم كل النواصي».

لكن أحداً لم يستمع إليه وتابع البحارة مسيرتهم. لم يمر وقت طويل حتى ثارت العاصفة، وكادت تمزق المركب

أشلاء، وعانى البحارة كثيراً لإصلاح الأضرار. وعندما انتهوا من عملهم سمعوا أعداداً من البجع تطير فوق رؤوسهم وتتحدث بصوت عال في ما بينها.

هذه المرة سأل البحارة إيفان باهتمام شديد: «عما يتحدث البجع؟».

نصحهم إيفان: «كونوا حذرين. أسمع وأفهم بوضوح أن القراصنة، لصوص البحر الرهيبين، قريبون منا. وإذا لم ندخل أحد الموانئ فوراً فسوف يحبسوننا ويقتلوننا».

أطاع الطاقم النصيحة بسرعة. وبمجرد أن دخل المركب الميناء مرت قوارب القراصنة بالقرب منه، ورأى التجار كيف استولى القراصنة على المراكب الغافلة. وعندما زال الخطر، أبحر البحارة مع إيفان بعيداً، بعيداً جداً. وأخيراً أرسوا مركبهم بالقرب من إحدى البلدات البعيدة المجهولة بالنسبة إلى التجار. كان الملك الحاكم في تلك البلدة شديد الانزعاج من ثلاثة غربان سوداء كانت تحط باستمرار على مقربة من نافذة جناح الملك. ولم يعرف أحد وسيلة للتخلص منها أو قتلها. أمر الملك بتوزيع المناشير في كل النواصي وعلى كل المنازل المأهولة، تقول إن كل من يستطيع أن يريح الملك من الطيور المزعجة فسوف تتم مكافأته بتزويجه

من صغرى بناته، لكن من يجرؤ على خوض المغامرة ويفشل في تخليص القصر من الغربان فسوف يعاقب بقطع رأسه. قرأ إيفان الإعلان بانتباه، مرة، واثنتين، ومرة ثالثة. وقرر أخيراً التوجه إلى قصر الملك، حيث خاطب الخدم: «افتحوا النافذة ودعوني أستمع إلى الغربان».

أطاع الخدام إيفان فاستمع قليلاً. ثم قال: «دعوني أقابل ملككم».

عندما وصل إلى حجرته، كان الملك جالساً على كرسي وثير عال، انحنى إيفان إجلالاً له وقال: «هناك ثلاثة غربان: أب وأم وولدهما. والمشكلة أن الغربان ترغب في الحصول على أمر ملكي عما إذا كان يتوجب على الغراب الابن اتباع أبيه أم أمه».

فأجاب الملك: «على الغراب الابن أن يتبع الغراب الأب».

وما إن أعلن الملك قراره الملكي، حتى مضى الغراب الأب والغراب الابن في اتجاه، واختفت الغراب الأم في اتجاه آخر، ولم يعد أحد يسمع الطيور المزعجة منذ ذلك الحين. أعطى الملك لإيفان نصف مملكته وزوجه الكوروليفنا الصغيرة ، وبدت الحياة سعيدة في عينيه.

في هذا الوقت، خسر والده التاجر الغني زوجته، وشيئاً فشيئاً خسر ثروته أيضاً. ولم يبق هناك من أحد يهتم به، فراح الرجل المسن يشحذ الصدقة من تحت نوافذ الناس المحسنين. تنقل من نافذة إلى أخرى، ومن قرية إلى سواها، حتى وصل ذات يوم مشمس إلى القصر حيث يعيش إيفان، وراح يرجو الناس بتذلل أن يحسنوا إليه. رآه إيفان فعرفه، وأمره بالدخول إلى القصر، وقدّم له الطعام وزوده بثياب جيدة، ثم سأله: «بمَ يمكنني أن أخدمك أيها المسن العزيز؟».

أجاب الوالد الفقير، من دون أن يعلم انه يتحدث إلى ابنه: «إن كنتم تريدون الإحسان إليّ، فاسمحوا لي بالبقاء هنا والقيام على خدمتكم كسائر خدامكم الأوفياء».

عندئذ صرخ إيفان: «يا والدي، يا والدي العزيز! لقد شككت بحقيقة أغنية العندليب، لكنك ترى اليوم أن قدرنا كان أن نجتمع وفقاً لنبوءته القديمة».

ارتعب الرجل المسن، وجثا على ركبتيه أمامه، لكن إيفان بقي الولد الصالح نفسه، فأخذ والده بحب بين ذراعيه وبكيا معاً بحزن شديد.

مرت عدة أيام وتمالك الوالد المسن نفسه واسترجع شجاعته كي يسأل ابنه الكوروليفيتش: «أخبرني، يا بني، كيف حدث أنك لم تقض نحبك في القارب؟».

ضحك إيفان بفرح، وأجابه: «أعتقد أنه لم يكن قدري أن أموت في قعر البحر الكبير الواسع، لكن نصيبي أن أتزوج الكوروليفنا، زوجتي الجميلة، وأن أقف بجانب أبي في أرذل العمر».

إيفانوشكا البسيط

في مملكة بعيدة جداً عن بلدنا، كانت هناك بلدة يحكمها القيصر بيا، وزوجته التساريتا كاروت. وكان في بلاط القيصر الكثير من رجالات الدولة الحكماء والمحاربين الأشداء، كما من الجنود العاديين الذين بلغ عددهم مئة ألف إلا واحداً.

وقد ضمت البلدة في ربوعها شتى البشر: الصادقون، والتجار الملتحون، الأوغاد الماكرون أصحاب الأيادي الطويلة، والتجار الألمان، والصبايا الجميلات، والسكارى الروس. وقد دأب الفلاحون في ضواحي البلدة، على حرث الأرض وزرع الحنطة وطحن القمح والمتاجرة في الأسواق ثم إنفاق المال على الشراب. وفي كوخ فقير في تلك الضواحي عاش رجل مسن مع أبنائه الثلاثة: توماس وباكوم وإيفان. ولم يكن الأب الهرم ذكياً وحسب، بل كان حكيماً. وحدث ذات مرة أنه دردش مع الشيطان. تكلما معاً بينما قدم له الشيخ كأساً من النبيذ ودفع الشيطان بهذه الطريقة إلى الإفشاء بالكثير من الأسرار. بعدها

بمدة قصيرة بدأ الفلاح الشيخ يقوم بالعجائب حتى صار الجيران ينادونه بالمشعوذ، الساحر، وحتى إنهم ظنوا أن الشيطان قد تلبسه.

هذا صحيح، صار الرجل يقوم بعجائب رائعة بجد. إذا كنت واقعاً في غرام إحداهن، فما عليك سوى أن تقصده وتنحني تبجيلاً له، وسوف يعطيك بعض الجذور الغريبة، وتصبح حبيبة القلب من نصيبك. وإذا سرق منك شيء ما، فاذهب إليه وأخبره بالقصة. وسوف يتلو الشيخ بضع كلمات فوق الماء، ويأخذ ضابطاً مباشرة للقبض على السارق، وستجد ما أضعته، فقط حذار من أن يكون الضابط نفسه هو السارق.

بالفعل كان الشيخ حكيماً جداً، لكن أولاده لم يكونوا أنداداً له. اثنان منهما كانا تقريباً بالذكاء نفسه. وقد تزوجا وأنجبا الأطفال. أما أصغرهم إيفان فبقي عازباً. لم يهتم أحد لأمره لأنه كان غبياً لا يستطيع أن يعد حتى الثلاثة، وكان سكراناً دائماً، يمضي وقته إما في الأكل أو النوم أو التسكع هنا وهناك. لَمَ سيهتم أحد بإنسان كهذا؟ يعلم الجميع أن الحياة أكثر بريقاً لبعضهم دون بعض. لكن إيفان كان صاحب قلب طيب مسالم. وإذا ما طلبت منه حزاماً فسيعطيك معه قفطاناً وإذا أخذت قفازيه فسوف يصرّ

على أن تأخذ القلنسوة معهما. لهذا كان إيفان محبوباً من الجميع، وكانوا ينادونه عادة إيفانوشكا البسيط. ورغم أن النعت يشير إلى الغباء، لكنه في الوقت نفسه يشدّد على طيبة القلب.

عاش شيخنا الحكيم مع أولاده حتى حانت أخيراً ساعته واقترب من شفا الموت. فنادى على أولاده الثلاثة وقال لهم: «يا فلذات كبدي، لقد دنت ساعتي ويجب عليكم أن تتموا رغبتي. على كل واحد منكم أن يأتي إلى قبري ويمضي ليلة واحدة معي: أنت يا توم، تأتي في الليلة الأولى، وأنت يا باكوم في الليلة الثانية؛ وأنت يا إيفانوشكا البسيط فلك الليلة الثالثة».

وعد الأخوان الكبيران بوصفهما عاقلين، بأن ينفذا وصية والدهما. أما الثالث البسيط فلم يعده حتى، واكتفى بحك رأسه فحسب.

مات الشيخ ودفن. ثم تذكروا وصية الأب، والتي تقضي بأن يهب توماس في الليلة الأولى إلى القبر، لكنه كان شديد الكسل، أو على الأرجح خائفاً، فقال لأخيه البسيط: «علي أن أستيقظ باكراً غداً صباحاً، إذ يجب أن أدرس الحنطة، فاذهب عوضاً عني إلى قبر والدنا».

أجاب إيفانوشكا البسيط: «حسناً». أخذ قطعة من خبز الجاودار الأسود، وذهب إلى القبر، واضطجع قربه وسرعان ما بدأ بالشخير.

أعلنت ساعة الكنيسة حلول منتصف الليل؛ صفّرت الريح، ونعق البوم في الأشجار، فُتح القبر وخرج الشيخ وسأل: «من هناك؟».

أجابه إيفانوشكا: «هذا أنا»

قال الوالد: «حسناً يا ولدي العزيز، سوف أكافئك لطاعتك».

وانظروا! سرعان ما صاحت الديوك وعاد الشيخ إلى قبره. وصل الأخ البسيط إلى المنزل وجلس قرب الموقد.

سأله أخواه: «ماذا حدث؟».

أجاب: «لا شيء، لقد نمت طوال الليل وأنا جائع الآن».

في الليلة الثانية، حان دور باكوم للذهاب إلى قبر والده. قلّب أفكاره وقال لأخيه البسيط: «سيكون يومي مزدحماً غداً. فاذهب عوضاً عني إلى قبر والدنا».

أجاب إيفانوشكا: «حسنا». أخذ معه قطعة من فطيرة السمك، وذهب إلى القبر ونام. اقترب منتصف الليل، صفّرت الريح، وجاء البوم يحلق، وفتح القبر وخرج الرجل منه.

سأل الرجل: «من هناك؟».

أجابه ابنه البسيط: «هذا أنا».

فقال العجوز: «حسناً يا ولدي الحبيب. لن أنسى طاعتك لي».

صاحت الديوك وعاد الشيخ إلى قبره. عاد إيفانوشكا البسيط إلى منزله، وتوجه كي ينام بالقرب من الموقد، وعند الصباح سأله أخواه:

«ماذا حدث؟».

أجاب إيفانوشكا: «لا شيء».

في الليلة الثالثة قال الأخوان لإيفان البسيط: «لقد حان دورك في الذهاب إلى قبر والدنا. يجب أن تحترم وصيته».

أجاب إيفانوشكا: «حسناً». أخذ معه بضع كعكات، وارتدى معطفاً من فراء الماعز وذهب إلى القبر.

عند منتصف الليل خرج والده، وسأل: «من هناك». وأجابه إيفانوشكا: «هذا أنا». فقال الشيخ: «حسناً، يا بني المطيع، سوف تتم مكافأتك». وصرخ بصوته الهدار: «انهض، أيها الحصان الكستنائي الأسرع من الريح، اظهر أمامي عند حاجتي إلى الخدمة المليح، قف على قوائمك كما العشب في عز العاصفة الفحيح!».

وانظر! لمح أيفانوشكا البسيط حصاناً يعدو، فتهتز الأرض تحت حوافره، وتلتمع عيناه كنجمتين، ويخرج الدخان من فمه وأذنيه على شكل غيمة. اقترب الحصان ووقف أمام الشيخ.

سأله بصوت بشري: «بمَ تأمرني؟».

تقدم الشيخ منه وفجأة دخل في أذنه اليمنى ليخرج منها بعد قليل شاباً وسيماً قوياً لم ير العالم مثله من قبل.

قال: «الآن اسمعني يا بنيّ، إني أهبك هذا الحصان، وأنت يا حصاني وصديقي الأمين، عليك أن تخدم ابني كما سبق وخدمتني».

بمجرد أن انتهى الشيخ من نطق هذه الكلمات، صاح الديك وعاد الساحر إلى قبره. قفل إيفان البسيط عائداً إلى منزله، حيث اضطجع في حجرته وسمع شخيره في أرجاء البيت.

سأله الأخوان مجدداً: «ماذا حدث؟».

لكنه لم يجبهم بشيء، بل اكتفى بالتلويح بيده.

أكمل الإخوة الثلاثة- الاثنان الذكيان والثالث البسيط- حياتهم المعتادة، يوماً لهم ويوماً عليهم. حتى جاء يوم لا يشبه سائر الأيام، علموا فيه أن رجالاً كثراً يتجولون في أرجاء البلاد يحملون الأبواق وينشرون أوامر القيصر في طول البلاد وعرضها. وهذا ما أمر به القيصر: له ابنة وحيدة، التساريفنا باكتريانا، وريثة العرش، وهي صبية جميلة إلى درجة أن الشمس تخجل من أن تنظر إليها، أما القمر فيداري نفسه من عينيها. وجد القيصر وزوجته التساريتزا صعوبة بالغة في تقرير من سيحظى بابنتهما زوجة له. إذ على هذا الرجل أن لائقاً بما فيه الكفاية كي يصل إلى سدة حكم البلاد، وعليه أن يكون محارباً جسوراً، وقاضياً عادلاً، ومستشاراً حكيماً للقيصر، ووريثاً مناسباً بعد موته. كما يجب أن يكون فتياً وسيماً وأن يحبّ التساريفنا حباً جارفاً. وهذا ليس بالأمر الصعب نظراً لجمالها وذكائها، لكن المشكلة تكمن في أن التساريفنا الجميلة لم تكن تحب أحداً. أحياناً ذكر القيصر أمامها اسم هذا الشاب أو ذاك. لكنه كان يتلقى منها باستمرار الإجابة نفسها: «لا أحبه». وحاولت معها أمها التساريتزا أيضاً، لكنها لم تحقق نتيجة أفضل: «لا يعجبني».

أتى يوم توجه فيه القيصر بيا وزوجته كاروت بجدية إلى ابنتهما وتحدثا حول موضوع الزواج فقالا: «يا ابنتنا الحبيبة، يا جميلتنا الرائعة تساريفنا باكتريانا. حان الوقت كي تختاري عريساً لك. هنا خطاب من كل الأوصاف، من الملوك والقياصرة والأمراء، وصلوا إلى عتباتنا، وجففوا أقبيتنا من الشراب، وأنت لم تجدي بعد رجلاً واحداً يستهوي قلبك».

أجابت التساريفنا: «يا مولاي، وأنتِ، يا أمي العزيزة، أشعر بالحزن عليكما، وأتمنى إطاعة رغبتكما. لكن اتركا القدر يقرر من نصيبه أن يكون زوجي. أسألكما بناء ميدان كبير يضم اثنين وثلاثين حلقة عالية، ويكون ثمة نافذة فوق تلك الحلقات. وسوف أجلس وراء هذه النافذة، وعليكم أن تسألوا جميع الراغبين بالزواج مني، من قياصرة وملوك وأمراء ومحاربين أشداء وشبان وسيمين، أن يأتوا. وذلك الذي يتمكن من القفز واجتياز الحلقات الاثنتين والثلاثين، ويصل إلى نافذتي ويتبادل معي المحبسين الذهبيين سيكون زوجي، وابناً ووريثاً لكما».

استمع القيصر وزوجته باهتمام شديد إلى كلمات ابنتهما التساريفنا الذكية، وقالا أخيراً: «لك ما أردت».

جهّز الميدان في مدة وجيزة، وكان كناية عن قاعة عالية جداً زينت بالستائر المخملية المحاكة بخيوط الذهب والمطرزة باللآلئ، كما بنيت اثنتان وثلاثون حلقة تعلوها نافذة عالية.

أوصل رسل القصر الرسائل للحكام والملوك، وطار الحمام الزاجل حاملاً الأوامر للرعية من علية القوم وبسطائهم بالمجيء في يوم محدد إلى قصر القيصر. ونشر خبر في أرجاء المملكة مفاده أن من يستطيع القفز عبر الحلقات والوصول إلى النافذة وتبادل المحبسين الذهبيين مع التساريفنا باكتريانا، سيكون الرجل المحظوظ مهما كانت رتبته: قيصراً أو مزارعاً حراً، ملكاً أم محارباً، نبيلاً أم شاباً بلا حسب أو نسب.

وجاء اليوم المشهود. تسابقت الحشود إلى الحقل حيث بنيت القاعة المتلألئة كسماء محتشدة بالنجوم. وجلست التساريفنا وراء النافذة العالية، وقد ازدان جيدها بالحجارة الكريمة واكتست بالمخمل واللآلئ. وراح الناس يهدرون في الأسفل كمياه المحيط. أما القيصر وزوجته فقد جلسا على العرش، يحيط بهما الحرس والمستشارون والخدم.

كان الخطّاب يصفّرون ويمتطون بفخر صهوات جيادهم، ويلوحون للنظارة وسيمين مفعمين بالشجاعة، لكن ما إن ينظروا

إلى النافذة العالية حتى يكاد قلبهم يتوقف من شدة الخوف. وقد جرّب الكثير من الفرسان حظهم. فكان كل منهم يثب وثبة طويلة، ثم يوازن نفسه، ويندفع قبل أن يعود ويسقط كالصخرة، في مشهد يضحك الحاضرين.

وبين هؤلاء كان أخوا إيفان البسيط يحضران نفسيهما للاشتراك في المسابقة.

قال لهما أخوهما: «خذاني معكما».

فضحك الأخوان: «أيها المغفل. ابق في المنزل واحرس الدجاجات».

أجاب: «حسناً». وذهب إلى باحة الدجاج واستلقى. ولكن ما إن توارى أخواه عن الأنظار، حتى نهض ومشى باتجاه الحقول الواسعة وصرخ بملء حنجرته: «انهض، أيها الحصان الكستنائي، انهض جواداً أسرع من الريح، اظهر أمامي عند حاجتي إلى فعل مليح، قف على قوائمك كما العشب في عز العاصفة الفحيح!».

جاء الحصان الرائع يعدو.

«بمَ تأمرني؟».

تقدم أيفانوشكا البسيط من أذن الحصان اليسرى، حوّل نفسه وعاد وظهر من الأذن اليمنى على صورة شاب وسيم لا وصف له في أي كتاب، إذ لم يسبق لأحد أن رأى شاباً بمثل بهائه. قفز على صهوة الجواد الذي ارتفع عالياً فوق الأرض، وفوق الغابات المظلمة وتحت الغيوم المرتحلة. قطع أنهاراً ضخمة سابحاً، وقفز فوق الصغيرة منها، كما فوق التلال والجبال. ثم وصل إيفانوشكا الساذج إلى قاعة التساريفنا باكتريانا، وطار فوقها كالصقر، واجتاز ثلاثين حلقة، لكنه لم يستطع أن يتجاوز الحلقتين الأخيرتين، فغادر المكان كالزوبعة.

راح الناس يصرخون: «اقبضوا عليه!» وقفز القيصر مكانه، وصرخت التساريتزا مندهشة. وراح الجميع يتكلمون بدهشة على هذا الفارس الغريب الذي لم يروا له مثيلاً من قبل.

عاد أخوا أيفانوشكا إلى البيت ولم تكن على لسانهما إلا سيرة الشاب الرائع الذي رأياه! يا لها من بداية رائعة.. أن يقطع ثلاثين حلقة!

فقال إيفانوشكا البسيط الذي كان قد وصل قبل زمن: «يا

أخويّ، لقد كنت أنا ذلك الشاب».

أجاب أخواه: «دعك من هذه الترهات ولا تهزأ بنا».

في اليوم التالي استعد الأخوان للذهاب إلى القاعة نفسها. وقال إيفانوشكا البسيط مجدداً: «خذاني معكما».

«المغفلون أمثالك مكانهم هنا. ابق صامتاً في المنزل وأبعد عصافير الدوري عن حقل البازلاء عوض الفزّاعات».

أجاب الساذج: «حسناً». وذهب إلى الحقل وبدأ بإخافة عصافير الدوري. لكن بمجرد أن غادر شقيقاه المنزل، انطلق في الحقل الواسع وراح يصرخ بصوت مجلجل: «انهض، أيها الحصان الكستنائي، انهض جواداً أسرع من الريح، اظهر أمامي عند حاجتي إلى فعل مليح، قف على قوائمك كما العشب في عز العاصفة الفحيح!».

حينئذ جاء الحصان تهتز الأرض تحت حوافره، ويتطاير الشرر حوله، وتضطرم عيناه كشعلة النار، ويتصاعد الدخان ملتفاً من منخريه، وسأل إيفان: «لأي أمر تريدني؟». اقترب إيفانوشكا البسيط منأذن الحصان اليسرى، وعندما ظهر من أذنه اليمنى، أوه، يا إلهي! أي شاب هو الآن! لم يكن هناك من يضاهيه وسامة

حتى في قصص السحر، هذا كي لا نقول إنه لم يكن له من مثيل في الحياة الحقيقية.

امتطى إيفانوشكا الحصان وداعبه بسوطه. فغضب الحصان النبيل، ووثب مرتفعاً أعلى من الغابات المظلمة، تحت الغيوم المرتحلة بقليل. بقفزة واحدة قطع ميلاً، وبقفزة ثانية بات النهر خلفه، وبقفزة ثالثة أصبح في القاعة. عندئذ قام الحصان، وإيفانوشكا على ظهره، وطار كالنسر، وحلق عالياً في الهواء، وقطع واحداً وثلاثين حلقة، لكنه أخفق في تجاوز الحلقة الأخيرة، وطار بعيداً كالريح.

صرخ الناس: «أمسكوه! أمسكوه!»، وقفز القيصر واقفاً، وصرخت زوجته مذهولة شأنها شأن الأميرة والحراس.

عاد أخوا إيفانوشكا البسيط إلى المنزل، وهما يتساءلان عمن عساه أن يكون هذا الشاب. نعم إنه مذهل بالفعل! بقيت أمامه حلقة واحدة فحسب.

قال إيفانوشكا لهما: «يا أخويّ، لقد كنت أنا ذاك الشاب».

فكان جوابهما الساخر: «احفظ لسانك أيها الأحمق».

في اليوم الثالث كان الأخوان في طريقهما مجدداً إلى ميدان المسابقة، ومجدداً قال لهما إيفانوشكا البسيط: «خذاني معكما».

فسخرا منه قائلين: «أيها الأحمق، إليك الطعام الذي يجب أن تتناوله الخنازير، الأفضل أن تذهب إليها».

أجاب الأخ الأصغر: «حسناً». وذهب بهدوء إلى الحديقة الخلفية وأطعم الخنازير. لكن ما إن غادر أخواه، حتى أسرع إيفانوشكا إلى الحقل الواسع وصرخ بأعلى صوته: «انهض، أيها الحصان الكستنائي، انهض جواداً أسرع من الريح، اظهر أمامي عند حاجتي إلى فعل مليح، قف على قوائمك كما العشب في عز العاصفة الفحيح!».

أتى الحصان راكضاً على الفور، فاهتزت الأرض، وحيث لامست حوافره الأرض تكونت البحيرات، وقد انبعث لهيب لامع من عينيه وصعد الدخان من أذنيه مثل الغيم.

سأل الحصان بصوت بشري: «ماذا تريد مني؟».

اقترب إيفانوشكا من أذن الحصان اليسرى وقفز خارجاً من أذنه اليمنى فارساً وسيماً. حتى فتاة صغيرة لا تستطيع أن تتخيل فارساً كهذا.

ساط إيفانوشكا الحصان، وانظروا! طار عالياً جداً في السماء. كانت الريح خلفهما. حتى السنونو، الطائر الحلو المجنّح، لا يمكنه حتى أن يتخيل الطيران هكذا. ارتفع بطلنا كالغيمة في السماء. وكانت خشخشة السلسلة الفضية تجلجل، وخصلات الفارس الجميلة تطير في الهواء. وصل إلى قاعة التساريفنا العالية، وساط حصانه مرة أخرى، وعندها، أوه! أي قفزة قفزها الحصان البري!

انظروا هناك! اجتاز الفارس كل الدوائر؛ وصل إلى قرب النافذة، وضم التساريفنا الجميلة بين ذراعيه، وقبلها على شفتيها الحلوتين كالسكر، وتبادلا المحبسين الذهبيين، وكالعاصفة انسحب بسرعة بين الحقول. هناك، هناك، إنه يسحق كل من في دربه! والتساريفنا؟ حسناً، هي لم تمانع. حتى أنها زينت جبينه بنجمة ماسية.

كانت أصوات الناس تهدر: «اقبضوا عليه!»، لكن الفارس كان قد اختفى من دون أن أثر.

أحس القيصر بيا .بمهانة لكرامته الملكية. وصرخت زوجته كاروت أعلى من أي وقت مضى واكتفى المستشارون الحكماء بهز رؤوسهم صامتين.

عاد الأخوان إلى المنزل يتحدثان ويناقشان هذه المسألة العجيبة.

هزا رأسيهما قائلين: «بالفعل، فقط فكر بالأمر! لقد فعلها الشاب وأصبحت التساريفنا عروسه. لكن من هو؟ وأين هو؟».

أجاب إيفانوشكا البسيط مبتسماً: «هذا أنا، يا أخويّ».

كاد الأخوان ان يصفعاه وأسكتاه: «الزم حدودك وكف عن قول أنا وأنا وأنا...».

أصبحت المسألة جدية هذه المرة، وأصدر القيصر أمراً .بمحاصرة البلدة بفرسان مهمتهم ترك الجميع يدخلون وعدم السماح حتى للنسمة بالخروج! كان على الجميع أن يمثلوا في القصر الملكي وأن يكشف كل واحد منهم عن جبينه. بدأت الجماهير تتجمع حول القصر من الصباح الباكر. وبدأ فحص كل جبهة، لكن لم يكن هناك نجمة على أي منها. اقترب وقت العشاء

والكل منشغل حتى إنهم نسوا أن يغطوا موائد الإوز بالشراشف البيض. كشف أخوا إيفانشكا جبهتيهما أيضاً قبل الذهاب، وكالعادة طلب أخوهما منهما: «خذاني معكما».

أجابا بسخرية: «القصر موجود هناك. لكن قل لنا ما به رأسك حتى غطيته بالقماش؟ هل ضربك أحدهم؟».

«لا. لم يضربني أحد. لكنني ارتطمت بالباب وآذيت جبهتي. بقي الباب بخير، لكن هناك ندبة على جبيني».

ضحك الأخوان ومضيا في سبيلهما. بعدها بقليل غادر أيفانوشكا المنزل وذهب مباشرة إلى نافذة التساريفنا، حيث جلست تتكئ على النافذة تنتظر خطيبها».

صرخ الحراس عندما أطل إيفان البسيط وصار بينهم: «هذا هو رجلنا. أرنا جبهتك. هل النجمة عليها؟»، وضحكوا.

لم يعرهم إيفانوشكا اهتماماً، ورفض الانصياع لأوامرهم. فأخذ الحراس يصرخون به وسمعت التساريفنا الجلبة وأمرتهم بإحضاره. لم يكن هناك ما يمكن فعله غير نزع القماش.

انظروا! كانت النجمة تشع وسط جبهته. امسكت التساريفنا إيفانوشكا بيده، أحضرته أمام القيصر بيا وقالت:

«هذا هو، يا والدي القيصر، هو المقدر له أن يصبح زوجي، صهرك ووريثك».

كان الوقت قد فات على الاعتراض. أمر القيصر بإتمام التحضيرات من أجل حفلات الزفاف، وتم تزويج إيفان البسيط من التساريفنا باكتريانا. وطوال أيام ثلاثة أقيمت الموائد التي عمرت بشتى الأطايب والمشروبات السخية. وكان هناك كل أنواع التسلية أيضاً. وقد عيّن أخوا إيفانوشكا حاكمين وأعطي كل منهما قرية وقصراً.

تُروى الحكايات في زمن قصير، أما أن يعيش المرء حياة حقيقية فأمر يتطلب وقتاً وصبراً. كان أخوا إيفانوشكا ذكيين، هذا ما نعلمه، وبمجرد أن أصبحا غنيين عرف الجميع بالأمر فوراً، وهما بأنفسهما أخذا يمدحنا شخصيهما بثقة متبجحين متفاخرين. لم يجرؤ الناس البسطاء حتى على النظر باتجاه بيتيهما، وحتى النبلاء منهم كانوا يضطرون إلى خلع قلنسوات الفرو أثناء مرورهم بشرفات بيتيهما.

مرة أتى عدة النبلاء إلى القيصر بيا وقالوا له: «أيها القيصر العظيم، إن أخوي صهرك يتبجحان في كل مكان بأنهما يعلمان بمكان وجود شجرة تفاح لها أوراق من فضة وثمار من ذهب، ويريدان إحضار شجرة التفاح هذه لك».

أمر القيصر فوراً بإحضار الأخوين أمامه وأمرهما بأن يأتيا فوراً بالشجرة العجيبة ذات الأوراق الفضية والثمار الذهبية. فتعلل الأخوان بأعذار لا تنتهي لكن القيصر أصر على طلبه. وأمر بمنحهما أفضل الجياد في الإصطبل الملكي ومضى الاثنان في مأموريتهما. أما صديقنا أيفانوشكا البسيط، فقد وجد في مكان ما حصاناً عجوزاً ضعيفاً، فامتطاه ومضى أيضاً. وصل إلى الحقل الواسع، شد الحصان من ذيله، وسلخه بقسوه، وصرخ: «أيتها الغربان وطيور العقعق، تعالي، تعالي! هناك غداء بانتظارك».

بعد ذلك فعل أمر حصانه السريع بالظهور، وكما العادة دخل من أذن وخرج من الثانية. وإلى أين توجه الجميع؟ نحو الشرق حيث تنمو أشجار التفاح الرائع ذات الأوراق الفضية والثمار الذهبية. وهي تنمو بالقرب من المياه الفضية وعلى الرمل الذهبي. عندما وصل إيفانوشكا إلى المكان اقتلع الشجرة من جذورها وقفل عائداً إلى البيت. كانت رحلته

طويلة فأحس بالتعب. وقبل أن يصل إلى بلدته، نصب خيمته واستلقى لكي يستريح. مر أخواه بمحاذاة الطريقة نفسها. وكان الفخر قد غادرهما، وأصيبا بالإحباط الشديد، خاصة أنهما لم يعلما ماذا يقولان للقيصر. لمحا الخيمة ذات القبة الفضية وبالقرب منها شجرة التفاح الرائعة. اقتربا أكثر.. وتعجب الأخوان «ها هو أخونا البسيط». أيقظا إيفانوشكا وأرادا أن يشتريا منه شجرة التفاح. كانا غنيين وعرضا عليه ثلاث عربات مملوءة بالفضة.

أجاب إيفانوشكا: «حسناً، يا أخويّ، شجرة التفاح الرائعة هذه ليست للبيع. لكن بإمكانكما أن تأخذاها إن أردتما. ولن أطلب سعراً باهظاً، فقط إصبعاً من القدم اليمنى لكل منكما».

ناقش الأخوان المسألة مراراً وقررا أخيراً أن يعطياه ما طلبه. قطع إيفانوشكا الإصبعين، وأعطاهما شجرة التفاح، وأحضر الأخوان الشجرة إلى القيصر فرحين ولم يكن هناك من حدّ لتفاخرهما وعجرفتهما.

قالا: «هاك، أيها القيصر العظيم. لقد ذهبنا بعيداً، واجتزنا مصاعب عدة في طريقنا، لكن أمنيتك قد تحققت».

بدا القيصر بيا سعيداً، وأمر بتحضير وليمة، وبعزف الموسيقى وقرع الطبول، وكافأ أخوي إيفانوشكا البسيط، وأعطى كل واحد منهما بلدة وأكثر من الثناء عليهما.

اشتد حنق النبلاء والفرسان.

قالوا للقيصر: «عجباً؟ ليس ثمة ما يميز هذه الشجرة ذات الثمار الذهبية والأوراق الفضية. أخوا صهرك يتبجحان بأنهما سيحضران لك خنزيرة ذهبية الذيل وفضية الأسنان، وليس الخنزيرة وحدها بل معها صغارها الاثنا عشر أيضاً.

استدعى القيصر الأخوين وأمرهما بأن يحضرا هذه الخنزيرة ذات الذيل الذهبي والأسنان الفضية مع صغارها الاثني عشر. تجاهل القيصر أعذار الأخوين فذهبا في مأموريتهما. ومرة أخرى سافر الأخوان في هذه المهمة الشاقة، بحثاً عن خنزيرة ذهبية الذيل وفضية الأسنان، وصغارها الاثني عشر.

في تلك الأثناء عقد إيفانوشكا البسيط عزمه على القيام برحلة إلى مكان ما. وضع سرجاً على بقرة، قفزة عليها ووجهه يواجه ذيلها، وغادر البلدة. وصل إلى حقل، فأمسك بالبقرة من قرنيها، رماها بعيداً في البراري وصرخ: «تعالي، تعالي،

أيتها الذئاب الرمادية والثعالب الحمراء! هاك عشاء لك!».

ثم نادى حصانه الأمين، ودخل في إحدى أذنيه وخرج من الثانية. ومضى الخيل السريع وسيده في مأموريتهما، هذه المرة باتجاه الجنوب. واحد، اثنان، ثلاثة، وإذا بهما في الغابة المظلمة. كانت الخنزيرة المطلوبة تعيش في هذه الغابة، تأكل الجذور، وتتبعها دوماً صغارها وتفعل مثلما تفعل.

رمى إيفانوشكا البسيط حبلاً حريرياً حول جيد الخنزيرة، وجمع صغارها في سلة وذهب إلى المنزل، لكن قبل أن يصل إلى بلدة القيصر بيا، نصب خيمة ذت قبة ذهبية واستلقى يستريح. على الطريق نفسها، اقترب الأخوان بوجهين مكفهرين، غير عالمين ماذا سيقولان للقيصر. شاهدا الخيمة، وبالقرب منها الخنزيرة الكبيرة التي كانا يبحثان عنها، مع الذيل الذهبي والأنياب الفضية، وكانت صغارها كلها في السلة. نظر الأخوان إلى داخل الخيمة، فإذا به إيفانوشكا مجدداً! أيقظاه وعرضا عليه شراء الخنزيرة لقاء ثلاث عربات كاملة مليئة بالأحجار الكريمة.

قال إيفانوشكا: «يا أخوي. خنزيرتي ليست للبيع. لكن إن كنتما راغبين فيها إلى هذا الحد، فإن إصبعاً واحداً من اليد اليمنى لكل واحد منكما سيكون ثمناً كافياً».

تشاور الأخوان في المسألة لوقت طويل؛ وفكرا: «يعيش الناس بسعادة بلا أدمغة، فلم لا يعيشون بسعادة من دون أصابع؟».

سمحا لإيفانوشكا بأن يقطع إصبعيهما، وأخذا الخنزيرة إلى القيصر، ولم يكن هناك حد لتفاخرهما.

قالا: «أيها القيصر الحاكم. لقد ذهبنا إلى كل مكان، خلف البحر الأزرق، خلف الغابات المظلمة، خضنا في الرمال العميقة؛ عانينا الجوع والعطش؛ لكن أمنيتك تحققت».

سعد القيصر أشدّ السعادة بخادمين أمينين مثلهما. وأولم على شرفهما وليمة هي الأفخم بين الولائم، ثم كافأهما بأن نصبهما نبيلين رفيعي المستوى وأجزل عليهما في الثناء.

لكن عدة نبلاء آخرين وبعض حاشية القصر قالوا: «لا شيء رائعاً في خنزيرة كهذه لها ذيل ذهبي وأنياب فضية. فالخنزيرة تبقى خنزيرة إلى الأبد. يتبجح أخوا صهرك الآن بأنهما سوف يسرقان لأجلك من إصطبلات التنين الناري فرساً لها عرف ذهبي وحوافر ماسية».

استدعى القيصر فوراً أخوي إيفانوشكا البسيط، وأمرهما بإحضار هذه الفرس ذات العرف الذهبي والحوافر الماسية.

أقسم الأخوان أنهما لم ينطقا بمثل هذه الكلمات، لكن القيصر لم يعر بالاً لاحتجاجاتهما.

«خذا قدر ما تريدان من الذهب ومن المحاربين لكن أحضروا لي الفرس الجميلة ذات العرف الذهبي والحوافر الماسية. وإذا فعلتما هذا فسأكافئكما مكافأة عظيمة؛ وإذا لم تفعلا فسوف أعيدكما فلاحين كما كنتما».

غادر البطلان الحزينان، غير عارفين وجهتهما المقبلة. أما إيفانوشكا فقد قفز على عصا وذهب باتجاه الحقل. وحالما أصبح في البرية الواسعة، أمر حصانه بالحضور، ودخل من أذن وخرج من الثانية، وانطلق على صهوة جواده إلى جزيرة بعيدة. على هذه الجزيرة، كان إصطبل التنين الناري الحديدي، محاطاً بحراسة مشددة، حفاظاً على الفرس ذات العرف الذهبي والحوافر الماسية، والتي وضعت خلف سبعة أبواب ثقيلة عليها سبعة أقفال ثقيلة.

سافر إيفانوشكا وسافر، لا نعرف كم من الوقت، حتى وصل أخيراً إلى تلك الجزيرة، تصارع ثلاثة أيام مع التنين وقتله في اليوم الرابع. عندها بدأ بتحطيم الأقفال، الأمر الذي تطلب منه ثلاثة أيام إضافية. وعندما أتمّ مهمته أمسك الفرس الرائعة من عرفها الذهبي وعاد بها إلى بلده.

كانت الطريق طويلة، وقبل أن يصل إلى بلدته، نصب إيفانوشكا كما عادته خيمة لها قبة ماسية، وتمدد كي يرتاح. أتى الأخوان مكفهري الوجه، خائفين من غضب القيصر. وانظروا! سمعا صهيلاً تهتز له الأرض، ورأيا فجأة الفرس ذات العرف الذهبي الذي يتوهج كالنار في ظلمة الليل. توقفا، وأيقظا إيفانوشكا البسيط، وأرادا أن يشتريا منه الفرس الرائعة، وقالا إنهما على استعداد لدفع مكيال من الأحجار الثمينة عن كل منهما ووعدا أيضاً بالمزيد.

قال إيفانوشكا: «رغم أن فرسي ليست للبيع، لكن إذا كنتما راغبين بها إلى هذا الحد فسأعطيها لكما، على شرط أن يعطيني كل واحد منكما أذنه اليمنى؟».

لم يجادل الأخوان حتى، وتركا إيفانوشكا يقطع أذنهما، ثم أمسكا اللجام وذهبا مباشرة إلى القيصر، وقدما له الفرس ذات العرف الذهبي والحوافر الماسية، ولم يعرف تبجحهما نهاية.

قال الأخوان للقيصر: «قطعنا بحاراً وجبالاً وحاربنا التنين الناري الذي قضم أذنينا وأصابعنا؛ لكننا لم نخف، لأننا نريد أن نخدمكم بأمانة: لقد أسلنا دمنا وخسرنا ثروتنا».

أغدق القيصر بيا الذهب عليهما، ونصّبهما الأعلى مرتبة بين الرجال مباشرة من بعده، وأقام على شرفهما الولائم الضخمة إلى درجة أن طباخي المملكة بأسرها تعبوا من كثرة الطبخ لإطعام الناس جميعاً.

وخلال الولائم جلس القيصر بيا على عرشه، إلى يساره أحد أخوي إيفان وإلى يمينه الأخ الآخر. وفي وسط الاحتفال، دخل إيفانوشكا البسيط، المحارب الشجاع اليافع، الشاب نفسه الذي اجتاز اثنتين وثلاثين حلقة ووصل إلى نافذة الجميلة تساريفنا باكتريانا.

عندما لمحه الأخوان، كاد الأول يختنق بالنبيذ الذي يحتسيه، أما الثاني فكادت قطعة من لحم الإوز تخنق أنفاسه. وراحا ينظران إلى أخيهما بذهول وصمت وسعها.

انحنى إيفانوشكا البسيط إجلالاً للقيصر وأخبره القصة كاملة. أخبره عن شجرة التفاح ذات الأوراق الفضية والثمار الذهبية، وعن الخنزيرة الذهبية ذات الأسنان الفضية وصغارها الاثني عشر. وأخيراً أخبره عن الفرس الرائعة ذات العرف الذهبي والحوافر الماسية. انتهى من كلامه وعرض أمامه الأذنين، وإصبعي اليدين والرجلين.

قال إيفانوشكا: «هذا ما حصلت عليه من المقايضة».

ثار غضب القيصر بيا، وضرب قدمه بالأرض، وأمر بأن يساق الأخوان بعيداً بالمقشات. تم إرسال واحد كي يطعم الخنازير والثاني كي يرعى طيور الحبش. أجلس التسار إيفانوشكا إلى جانبه، وجعله الأعلى رتبة بين الرجال. واستمرت الولائم وقتاً طويلاً حتى ملّ الناس.

تسلم إيفانوشكا مقاليد الحكم في المملكة، فحكم بعدل وحكمة وبأس.وبعد أن توفي حماه أخذ مكانه. فأحبه أتباعه، وأنجب الكثير من الأولاد وبقيت جميلته تساريتزا باكتريانا جميلة إلى الأبد.

بوغوتيه الكَرِب

في قرية صغيرة، لا تسألوني أين بالضبط، لكنها في روسيا بأي حال من الأحوال، عاش أخوان؛ أحدهما غنيّ والثاني فقير. وكان الغني محظوظاً في كل أمر من أموره، فيصيب النجاح كيفما ولى وجهه، ويحقق الأرباح من كل صفقة يقوم بها. أما الأخ الصغير، وعلى الرغم من كل معاناته والجهد الذي يبذله، فقد بقي فقيراً معدماً.

ازداد الأخ الغني غنى، فانتقل إلى بلدة واسعة، واشترى منزلاً كبيراً، وصار اسمه معروفاً بين التجار. أما الأخ الفقير فازداد فقراً، إلى درجة أنه لم تعد لديه حتى كسرة خبز في كوخه، وصار صغاره المساكين يبكون من شدة الجوع.

عيل صبر الأخ الفقير من حظه العاثر. وفقد كرامته وطأطأ رأسه. وقرر ذات يوم أن يطلب المساعدة من أخيه الغني. فذهب وقال له: «كن أخاً صالحاً وساعدني، فقد أصبحت بلا حيل تقريباً».

أجابه الأخ الغني: «لِمَ لا؟ بإمكاننا أن نفعل ذلك. فلدينا ما يكفي من المال. لكن انظر هنا، هناك الكثير من العمل الذي يجدر القيام به أيضاً. فابق هنا واعمل عندي فترة».

وافق الأخ الفقير وبدأ بالعمل فوراً. أخذ ينظف الباحة الواسعة، ثم يسوس الخيل، ثم بدأ يحضر الماء من البئر أو يقطع الخشب. مر أسبوع واحد، ثم اثنان. أعطاه الغني زهاء خمسة وعشرين كوبيكاً، ما يعادل ثلاثين سنتاً فحسب. كما أعطاه رغيف خبز من الجاودار الأسود.

فقال الأخ الفقير بتواضع: «ألف شكر». وهمّ بالمغادرة إلى بيته التعس. ويبدو أن الأخ الأكبر أحسّ بتأنيب الضمير، فنادى أخاه مجدداً. وقال له: «لِمَ العجلة؟ غداً عيد ميلادي، ابق لتحتفل معنا».

بقي الأخ الفقير. لكن حتى في مناسبة سعيدة كهذه لم يكن لغير المحظوظ حظّ. كان أخوه الغني مشغولاً باستقبال أصدقائه الكثر ومحبيه الذين جاؤوا ليعربوا له عن مدى حبهم وتقديرهم له. شكر التاجر الغني ضيوفه على محبتهم، وانحنى منخفضاً راجياً ضيوفه الأعزاء أن يتناولوا الطعام وأن يشربوا ويستمتعوا. ولم يعر أدنى اهتمام لأخيه الفقير، بل تجاهله بالكامل وتركه

يجلس بخجل في الزاوية، صامتاً مهملاً من الجميع. ولم يقدّم له أحد ما يأكله أو يشربه. وعندما هم الضيوف بالمغادرة انحنوا احتراماً لمضيفهم وأثنوا عليه كثيراً، وفعل الأخ الفقير مثلهم بالضبط. ركب الضيوف عرباتهم وعادوا إلى منازلهم مغنين فرحين. ورافقهم الأخ الفقير بصمت، وحيداً وجائعاً وحزيناً، فخطرت له فكرة: «ماذا لو حاولت أنا الآخر أن أغني أغنية فرحة؟ فسيحسب الآخرون أنني أمضيت أيضاً وقتاً مبهجاً في بيت أخي وأني عائد بسعادة مثلهم».

بدأ الرجل الطيب يغني، وما هي إلا لحظة حتى كاد يغيب عن الوعي تقريباً، إذ سمع بشكل واضح أحدهم يغني خلفه النغم نفسه وإن بحدة أكبر. توقف. فتوقف الصوت أيضاً. غنى، فعاد الصوت.

صرخ الفقير: «من هناك؟ أظهر نفسك حالاً!». حينئذ ظهر الوحش، وهو كائن نحيل أصفر يشبه الهيكل العظمي وقد تدثّر بالخِرَق. خاف الرجل الفقير، لكنه كان شجاعاً كفاية لكي يسأل الوحش: «من أنت؟».

«أنا؟ اسمي «بيتر وو»[1]. وأنا أحد الأبطال الروس، أنا بوغوتير الكرِب. أشفق على جميع الضعفاء. بمن فيهم أنت، وأرغب دوماً في تقديم العون».

«حسناً. يا بيتر وو؛ ولنمش معاً. أعتقد أن لا أصدقاء لي غيرك في هذا العالم».

ضحك الوحش: «دعنا نركب، أيها الرجل الطيب. سوف أكون رفيقك الوفي».

«شكراً، لكن على ماذا سنركب؟».

«لا أعلم ماذا سنركب، لكنني سأركب على كتفيك». وقفز على كتفي الرجل غير المحظوظ. لم يكن لدى الرجل المسكين قوة كي يطيحه جانباً، فزحف على امتداد الطريق الطويلة الشاقة، حاملاً وو على كتفيه، ناقلاً قدميه بصعوبة، أما وو فظلّ يغني ويصفر ويضربه بالسوط كل الوقت.

سأله وو: «لماذا أنت شديد الحزن يا سيدي؟»، فلم تنمّ عن الفقير سوى تنهيدة. فتابع وو: «استمع إلي، أريد أن أعلمك هذه الأغنية، إنها أغنيتي القصيرة المفضلة:

---

(1) أي «الكرب المرير» (م).

«أنا وو الشجاع

أنا وو الأصلع

الذي يعيش معي

سوف ينسى المصائب

وعندما ينقصه المال

آتيه بالذهب»

وأضاف: «اسمع يا سيدي، بما أن بحوزتك خمسة وعشرين كوبيكاً، فلِمَ لا نذهب ونشتري بعض النبيذ ونمضي وقتاً مفرحاً جميلاً».

أطاعه الرجل المسكين. فذهبا وصرفا كل المبلغ على الشراب. بعدها عاد الرجل السيء الحظ يحمل وو الوفي على كتفيه. كانت زوجته حزينة وأطفاله الصغار يتضورون جوعاً ويبكون، لكنه تحت تأثير وو والخمرة، أخذ يرقص ويغني.

في اليوم التالي بدأ وو يتنهد وقال: «أعاني من صداع جراء الخمر. فلنشرب المزيد».

أجابه الفقير: «لا أملك المال».

«هل نسيت أغنيتي الصغيرة؟ دعنا نبع المجرفة والمعول، والزلاجة، ونمضي بثمنها وقتاً رائعاً».

«حسناً».

لم يملك الرجل الفقير الضعيف الشجاعة كي يرفض وأصبح وو بوغوتير سيده وحاكمه. قصدا إلى إحدى الحانات وأنفقا كل ما يملكه الرجل؛ سكرا، غنيا، وأمضيا وقتاً ممتعاً.

تنهد وو في اليوم التالي مجدداً وقال للفلاح: «دعنا نشرب، دعنا نقضِ وقتاً مبهجاً، فلنبع أو نتاجر بكل ما تبقى، حتى أنفسنا».

عندها فهم الرجل أن نهايته قد حانت وقرر أن يخيب ظن وو الحزين، فقال: «سمعت مرة شيخاً يقول إنه خلف القرية، في جوار من الغابة المظلمة، يوجد كنز مدفون، نعم، كنز رائع، لكنه مدفون تحت صخرة ضخمة ثقيلة على رجل واحد. لو استطعنا أن نحرك تلك الصخرة فحسب، أنا وأنت يا وو بوغوتير، لاستطعنا أن نقضي وقتاً مرحاً ولاصبح لدينا الكثير لنشربه».

صرخ وو: «دعنا نسرع. بيتر وو قوي كفاية كي يقوم بما هو أصعب من تحريك الصخر».

سلكا طريقاً تلتف خلف القرية وشاهدا صخرة كبيرة ضخمة، كانت ثقيلة إلى درجة أن خمسة أو ستة فلاحين أقوياء ما كان ليقدروا حتى على زحزحتها. لكن صديقنا الفقير بمساعدة وو بوغوتير الوفي أزاحاها فوراً. نظرا إلى الداخل. تحت الصخرة وجدا حفرة عميقة مظلمة. في أسفل الحفرة كان شيء ما يلمع. قال الفلاح لوو: «يا وو الجريء، هيا اقفز، ارم الذهب خارجاً إلى وسوف أمسك الصخرة».

قفز وو وراح يضحك بصوت عال.

صرخ: «أخبرك يا سيدي. لا نهاية للذهب هنا. هناك أكثر من عشرين جرة مملوءة بالذهب». وناول وو جرة للرجل الفقير الذي أخذها وخبأها بسرعة تحت كنزته، وأعاد الصخرة إلى وضعها السابق. فبقي بيتر وو في الحفرة العميقة وقال الفلاح لنفسه: «هذا هو المكان المناسب لرفيقي، إذ مع رفيق مثله حتى الذهب سيكون طعمه مراً».

ثم عاد الرجل مسرعاً إلى بيته. وسرعان ما تحول إلى رجل جديد، شجاع، مثابر ومنتج: اشترى بستاناً وماشية ومسكناً جديداً، وحتى إنه بدأ بالتجارة. وكان ناجحاً جداً أيضاً. في غضون عام ملك الكثير من المال إلى درجة سمحت له ببناء منزل كبير واسع.

ذات يوم مشمس ذهب إلى البلدة ليسأل عن أخيه الغني، برفقة زوجته وأولاده، كي يدعوه إلى وليمة سوف يقيمونها في البيت الجديد.

تعجب الأخ الغني: «هذه مزحة! ستقيم وليمة وأنت لا تملك روبية واحدة أيها الأحمق! من الواضح أن رغبتك جامحة لتقليد الأناس الأغنياء» ثم ضحك الأخ الغني وضحك منه. لكن في الوقت نفسه كان شديد القلق كي يعرف حال أخيه الفقير، فذهب من دون تأخير إلى البيت الجديد. عندما وصل إلى هناك لم يستطع تصديق عينيه. بدا أخوه الفقير غنياً جداً، ربما حتى أغنى منه، كل شيء كان مكلفاً ومنتقى بعناية. عامل المضيف أخاه وعائلته بكثير من حسن الضيافة والكياسة. كان لديهم الكثير من الأطايب كي يتذوقوها والكثير من العسل كي يشربوه وبدأ الكل في الحديث. وحكى الأخ الذي كان شديد الفقر كل قصته

مع وو، وكيف قرر خداعه وكيف أنه الآن، بعد أن تحرّر من كل عبء، بات رجلاً سعيداً.

أصاب الجشع الرجل الغني وفكّر: «أهو غبي؟ من بين جرار عديدة قرر أخذ واحدة فقط! يا له من غبي! عندما يملك الشخص المال حتى وجود بيتر وو ليس سيئاً عندها».

فقرر فوراً أن يذهب ويبحث عن الصخرة، كي يزيحها ويأخذ الكنز، كل الكنز، وأن يعيد وو بوغوتير إلى أخيه مجدداً.

وفوراً نفذ ما قرر. ودع الرجل الغني أخاه وغادر، لكنه لم يذهب إلى منزله الفخم. بل أسرع إلى الصخرة. كان عليه أن يكدح كي يزيح الصخرة الثقيلة، وأخيراً نجح وأزاحها قليلاً فقط، ولم يكن لديه وقت على الإطلاق كي ينظر إلى الداخل إذ سرعان ما فاجأه بوغوتير المختبئ وقفز على كتفيه.

أحس الرجل الغني بالعبء، وأي عبء ثقيل! نظر من حوله ورأي وحشاً مفزعاً. سمع الوحش يهمس في أذنه: «كم أنت رائع! لم تردني أن أقضي في تلك الحفرة؟ الآن يا عزيزي، لن تتخلص مني أبداً، الآن سنبقى معاً دائماً».

قال الغنيّ: «يا وو الغبي. لم أكن أنا من خبأك تحت الصخرة؛ ذلك كان أخي، فاذهب إليه».

لكن رفض وو الذهاب. وراح يضحك ويضحك.

أجاب الغني: «لا فرق، لا فرق. دعنا نبقَ رفيقين عزيزين».

عاد الغني إلى المنزل وهو يرزح تحت عبء وو مانح التعاسة. وسرعان ما خسر ثروته، أما أخوه الذي عرف كيف يتخلص من وو، فقد عاش فقد حياة مزدهرة ولا يزال كذلك حتى اليوم.

بابا ياغا

في مكان ما، لا أستطيع تحديده لكم، لكنه بالتأكيد في بلاد روسيا الواسعة، عاش فلاح مع زوجته وكان لهما توأمان، صبي وبنت. ذات يوم ماتت الزوجة وحزن الزوج عليها بصدق فعاش حداداً لوقت طويل. مرت سنة، اثنتان، وحتى أكثر، غاب خلالها النظام عن البيت في غياب امرأة تتولى أموره، وأتى يوم فكر الرجل فيه «إذا تزوجت مجدداً فربما تسير الأمور على خير ما يرام». وهكذا فعل، وأنجب أطفالاً من زوجته الثانية.

كانت زوجة الأب تحسد ابني الزوجة الأولى وصارت تعاملهما بقسوة. فتضربهما بالسوط من دون مبرر، وترسلهما بعيداً من المنزل كلما خطر لها ذلك، وتطعمهما الفتات. أخيراً أرادت أن تتخلص منهما معاً. هل تعرفون ما معنى السماح لفكرة شريرة بأن تدخل قلب أحدهم؟

تنمو الفكرة الشريرة طوال الوقت مثل النبتة المسمومة وتقتل ببطء كل الأفكار الجيدة. وهكذا بدأت المشاعر الشريرة تنمو في قلب الخالة، حتى صممت على إرسال الطفلين إلى الساحرة بابا يوغا، متأكدة أنهما لن يعودا.

توجهت إلى اليتيمين قائلة: «يا ولديّ العزيزين، اذهبا إلى جدتكما التي تعيش في الغابة في كوخ تحت أقدام دجاجة. ونفذا كل ما تطلبه منكما، وسوف تعطيكما أطيب الطعام وستكونان سعيدين».

مضى اليتيمان. لكن بدلاً من الذهاب إلى الساحرة الشريرة، أمسكت الأخت – وهي رغم صغرها متوقدة الذكاء – يد أخيها وهربت معه إلى جدتهما العجوز. وأخبرتها بما يدور معهما.

قالت العجوز الطيبة: «أوه، يا عزيزيّ المسكينين، قلبي ينفطر عليكما، لكن ليس في مقدوري مساعدتكما. عليكما بالتوجه ليس إلى جدتكما المحبة ولكن إلى الساحرة الشريرة. الآن استمعا إليّ يا عزيزيّ. سوف أعطيكما نصيحة: كونا لطيفين طيبين مع كل الناس. لا تتفوها بكلمات نابية لأي كان، لا تتكبرا على مساعدة الضعيف، ودائماً صليا لكي تجدا أيضاً من يساعدكما».

أعطت العجوز الطيبة الطفلين بعض الحليب الطازج اللذيذ كي يشرباه وشريحة كبيرة من اللحم. كما أعطهما بعض الكعك—هناك كعك في كل مكان—وعندما غادر الطفلان وقفت تراقبهما لوقت طويل جداً.

وصل الولدان المطيعان إلى الغابة و أوه، يا للعجب! وجدا كوخاً، ويا له من كوخ مثير للعجب! إذ أنه مثبت على رجل دجاجة صغيرة، وفي أعلاه كان هناك رأس ديك رومي! أصابتهما الرعشة وصرخا بصوتهما الطفولي عالياً: «إيزبوشكا، إيزبوشكا! أدر ظهرك إلى الغابة ووجهك إلينا!».

فعل الكوخ كما أمراها. نظر اليتيمان إلى الداخل وشاهدا الساحرة ترتاح هناك، رأسها قرب العتبة رجلها في زاوية والرجل الأخرى في الزاوية الثانية، أما ركبتاها فكانتا قرب سارية الكوخ.

تساءلت الساحرة «فو، فو، فو! أحس بالروح الروسية».

ارتعب الطفلان، والتصقا ببعضهما، لكن برغم خوفهما قالا بكثير من التهذيب: «أيتها الجدة، أرسلتنا خالتنا إليك كي نخدمك».

«حسناً، لا مانع عندي أيها الولدان. إذا حققتما كل ما أطلبه منكما فسوف أكافئكما. وإذا لم تفعلا سوف ألتهمكما».

وفوراً أمرت الساحرة الفتاة أن تقوم بأعمال الغزل، والصبي بحمل الماء في غربال وأن يملأ الحوض الكبير. بكت البنت اليتيمة وهي تلف دولاب الغزل ومسحت دموعها المريرة. فوراً ظهرت إلى جانبها فئران تصرصر وتقول: «أيتها الفتاة اللطيفة، لا تبكِ. أعطينا كعكاً وسوف نساعدك».

فعلت الفتاة الصغيرة ذلك بملء إرادتها.

صرصرت الفئران شاكرة: «الآن، اذهبي وجدي القط الأسود. إنه يتضور جوعاً، أعطه بعض اللحم وسوف يساعدك».

ذهبت الفتاة بسرعة تبحث عن القط، وشاهدت أخاها وهو يحاول أن يجد طريقة يملأ بها المغطس، فقد ملأ الغربال مرات عدة لكن المغطس ظل جافاً. مرت بالقرب طيور صغيرة، قالت للطفلين: «أيها الطفلان الطيبا القلب، أعطيانا بعض كسرات الكعك وسوف ننصحكما».

أعطى اليتيمان الطيور بعض الكسرات. فزقزقت الطيور شاكرة مجدداً، وقالت: «بعض الماء والصلصال، أيها الولدان العزيزان».

وطارت مبتعدة.

فهم الطفلان التلميح، فوضعا بعض الصلصال في الغربال وخلطاه بالماء، فلم يعد الماء ينفد منه، وتمكنا من ملء المغطس في وقت سريع. وعادا كلاهما إلى الكوخ والتقيا القط على العتبة. أعطياه بسخاء بعض اللحم المقدد الذي زودتهما به جدتهما، وربتا عليهم وسألاه: «أيها القط الأسود الجميل، أخبرنا ماذا علينا أن نفعل كي نهرب من قبضة سيدتنا الساحرة؟».

أجاب القط بجدية كبيرة: «حسناً. سوف أعطيكما منشفة ومشطاً وعندها عليكما أن تهربا. عندما تسمعان الساحرة تركض خلفكما، عليكما برمي المنشفة خلف ظهركما وسوف يظهر أمامكما نهر واسع. وإذا سمعتماها مرة أخرى، قوما برمي المشط، وحيث ترميانه ستظهر غابة مظلمة. هذه الغابة سوف تحميكما من الساحرة الشريرة».

عادت بابا ياغا في تلك اللحظة.

قال: «أليس هذا رائعاً؟ كل شيء على أتم ما يرام، حسناً، كنتما شجاعين وذكيين اليوم. دعونا نر غداً. مهمتكما ستكون أكثر صعوبة وآمل أن آكلكما».

أوى اليتيمان المسكينان إلى السرير، ولم يكن سريراً دافئاً حضرته يد محبة، بل كان فراشاً من القش يحتل زاوية باردة. كادا أن يموتا من الخوف، واضطجعا هناك خائفين من التلفظ بكلمة، وحتى من التنفس. صباح اليوم التالي أمرتهما الساحرة بأن يجمعا كل خيطان الكتان وأن يحيكاها، وأن يحضرا كمية كبيرة من الحطب من الغابة.

فحمل الطفلان المنشفة والمشط وركضا بأسرع ما يمكن لأرجلهما أن تحملهما. ركضت الكلاب خلفهما، لكنهما رميا ما تبقى من الكعك. لم تفتح البوابة الخارجية بسهولة فزيتها الطفلان بقليل من الزيت. وكادت شجرة البتولا بالقرب من دربيهما تهشم عينيهما بأغصانها، لكن الفتاة اللطيفة أسرعت وربطتها بوشاح جميل. فابتعدا أكثر وركضا من الغابة المظلمة إلى الحقول المشمسة.

جلس القط بالقرب من المغزل ومزق الخيطان بسعادة بالغة. عادت بابا ياغا.

صرخت: «أين الطفلان؟»، وبدأت تضرب الهر: «لماذا تركتهما يغادران، أيها القط الخائن؟ لماذا لم تخدش وجهيهما؟».

أجاب القط: «حسناً، هذا لأنني خدمتك سنوات عدة ولم تناوليني يوماً قضمة واحدة، بينما أعطاني الطفلان العزيزان بعض اللحم الشهي».

نادت الساحرة بتسلط معاتبة الكلاب، والبوابة وحتى شجرة البتولا على جانب الطريق.

نبحت الكلاب: «بالرغم انك من دون شك سيدتنا، لكنك لم تقدمي لنا يوماً أي شيء، وكان اليتيمان لطيفان معنا».

أجابت البوابة: «كنت دوماً جاهزة لإطاعتك، لكنك لطالما أهملتني، وقد قام الأولاد اللطفاء بتزييتي».

أما شجرة البتولا فقالت: «أنت لم تضعي يوما خيطاً واحداً على أغصاني، أما الصغيران العزيزان فقد زينا أغصاني بوشاح جميل».

فهمت بابا ياغا أن أحداً لن يساعدها وانطلقت خلف الأولاد بنفسها. وفي خضم استعجالها نسيت أن تبحث عن المنشفة

والمشط، وقفزت على مقشة وبدأت تتعقبهما. سمعها الولدان تقترب فرميا المنشفة خلفهما. فوراً، ظهر نهر كبير وواسع. قفزت بابا ياغا بمحاذاة الضفة حتى وجدت مكاناً ضحلاً اجتازته.

مرة أخرى سمع الطفلان جريها خلفهما فرميا المشط. هذه المرة ظهرت غابة مظلمة تشابكت جذور أشجارها وتلاحمت أغصانها، والتصقت قممها ببعضها بعض. حاولت الساحرة بجهد كبير أن تجتاز الغابة لكن كل جهدها ذهب هباء، وعادت إلى منزلها وهي تكاد تنفجر من شدة الغضب.

أسرع اليتيمان إلى والدهما، وأخبراه بكل ما حدث معهما، وأنهيا قصتهما المؤلمة بالسؤال: «أه، يا والدنا العزيز، لماذا تحبنا أقل مما تحب إخوتنا وأخواتنا؟».

تأثر الوالد من هذا الكلام وشعر بأشد الغضب. فطرد الخالة الشريرة وعاش حياة جديدة مع أولاده الصالحين. ومنذ ذلك الحين راح يسهر على سعادتهم وتوقف عن إهمالهم.

كيف أعرف أن هذه القصة حقيقية؟ لقد كان أحدهم هناك وأخبرني بها.

ديميان الفلاح

منذ وقت ليس ببعيد، وربما بالمصادفة منذ زمن غابر، لا أعرف بالتأكيد، عاش في إحدى القرى، فلاح. وكان هذا الفلاح عنيداً سريع الغضب واسمه ديميان. كان بطبيعته قاسياً يريد أن يسير كل شيء على هواه. فإذا تكلم أحدهم أو تصرف بعكسه، يكون جوابه حاضراً في قبضته.

أحياناً، على سبيل المثال، كان يدعو أحد جيرانه ويقدم له أشياء لذيذة للأكل والشرب. وكان الجار- حفاظاً منه على عادة قديمة- يدّعي أنه غير راغب في الطعام. عندها يبدأ ديميان بالشجار صارخاً: «عليك أن تطيع مضيفك!». وذات مرة زاره رجل داهية. فقام صاحبنا ديميان وملأ المائدة بأفضل ما لديه وفرح لأنه توقع الوقت الجيد الذي سيمضيانه.

التهم الضيف كل شيء بسرعة. وأذهل ذلك ديميان ومع ذلك أخرج قفطانه. وقال لضيفه «اخلع عنك جلد الماعز. وخذ ارتدِ قفطاني الجديد».

بينما عرض عليه القفطان فكر ديميان في قرارة نفسه: «أراهن على أنه لن يتجرأ هذه المرة على الموافقة، وإلا فسألقنه درساً».

لكن الضيف ارتدى بسرعة القفطان الجديد، وشده على جسده بواسطة الحزام، هز رأسه ذا الشعر المجعد وأجاب: «شكراً لك يا عم على الهدية. كيف أجرؤ على عدم القبول بها، فعلى الضيف أن يطيع مضيفه».

كانت أعصاب ديميان تفلت منه شيئاً فشيئاً، وأراد بأي ثمن أن تسير الأمور كما يريد. لكن ماذا عساه أن يفعل؟ أسرع باتجاه الإصطبل، وجاء بأفضل حصان لديه وقال لضيفه: «أهلاً بك، أهديك أعزّ أملاكي». وفي قرارة نفسه أخذ يفكر: «سوف يرفض هذه المرة، وسوف يأتي دوري».

لكن الرجل لم يرفض، وأجاب مبتسماً: «في بيتك كلمتك هي الناهية» وقفز بسرعة على ظهر الحصان وصرخ بالفلاح ديميان: «وداعاً، يا معلمي. لم يدفعك أحد إلى الفخ سوى نفسك» ومع هذه الكلمات انطلق الرجل.

لاحقه ديميان بنظراته وهز رأسه. وقال: «حسنا. سأقلع عن هذه العادة».

الجبل الذهبي

في يوم من الأيام، وجد ابن أحد التجّار الذي كان يستمتع بتبذير المال أنه بات مفلساً، ما عاد لديه ما يأكله ولا ما يشربه. فحمل رفشاً وذهب إلى السوق ليرى إن كان أحدهم يحتاج إليه وقد يشغّله عنده كعامل.

جاء تاجر غني فخور، يملك الكثير من الآلاف، على عربة مذهّبة. وكان كل رجال السوق هناك، لكن ما إن رأوه يقترب حتى ركضوا واختبأوا هنا وهناك. بقي رجل واحد فحسب، وهو ابن تاجرنا.

قال التاجر الغني له: «أتبحث عن عمل أيها الغلام الطيب. سوف أشغلك عندي».

«فليكن؛ لهذا جئت إلى هنا».

«بأي سعر».

«مئة روبل يومياً ستكون كافية بالنسبة إلي».

«لَم كل هذا».

«إذا كنت ترى المبلغ كبيراً، فاذهب وابحث عن سواي؛ لقد كان الكثير من الناس هنا وعندما رأوك آتياً فروا بعيداً».

«حسناً. تعال غداً إلى رصيف المرفأ».

في اليوم التالي، عند الصباح الباكر، وصل صاحبنا ابن التاجر إلى الرصيف، فوجد التاجر الغني في انتظاره.

ركبا سفينة وأبحرا وسط البحر. أبحرا وقتاً طويلاً، وأخيراً رأيا جزيرة. كانت الجبال عالية على هذه الجزيرة، وبدا بالقرب من الشاطئ كأن شيئاً ما يحترق.

قال ابن التاجر: «يلوح شيء يشبه النار».

«لا، هذا قصري الذهبي».

رسا المركب، ونزلا إلى الشاطئ، وانظر هنا! أسرعت زوجة التاجر الغني كي تلاقيه، ومعها ابنتهما الصغيرة، وهي فتاة جميلة، أجمل مما تحسبه أو تستطيع أن تتخيله.

التقت العائلة وذهب الجميع إلى القصر. وذهب معهم العامل الجديد. جلسوا خلف المائدة المفروشة بالإوز وأكلوا وشربوا بكل سرور.

قال التاجر الغني: «لا يحتسب اليوم الأول، دعنا نمضِ وقتاً جميلاً ونترك العمل للغد».

كان العامل الشاب، رجلاً جيداً وشجاعاً، وسيماً مهيباً، وأحبته ابنة التاجر كثيراً.

غادرت الغرفة ورسمت له إشارة كي يتبعها. وأعطته محك الذهب[1] وحجر صوان.

قالت: «خذ هذا، ربما تحتاج إليه يوماً».

في اليوم التالي ذهب التاجر الغني مع العامل المستأجر إلى أعلى جبل الذهب. لاحظ الشاب الفتي حالاً أنه لا جدوى من محاولة التسلق أو حتى الزحف.

قال التاجر: «حسناً. دعنا نشرب نخب الشجاعة».

(1) وهو حجر يحك به لاختبار أصالة الذهب (م).

وأعطى الشاب القليل من الشراب المنوّم. شرب الشاب وغط في نوم عميق.

استل التاجر الغني سكيناً حادة، قتل حصاناً بائساً، فتح بطنه، وضع الشاب في داخله ومعه الرفش، وأخاط جلد الحصان مع بعضه وجلس هو في الغابة.

فوراً جاءت الغربان تحلق، غربان سود ذات مناقير حديد. أمسكت بالجيفة، وحملتها إلى أعلى الجبل، وبدأت تنقرها.

سرعان ما التهمت الغربان الحصان وكانت على وشك أن تبدأ بالتهام ابن التاجر، عندما استفاق، أبعد الغربان، نظر حوله وسأل بصوت عال: «أين أنا؟».

أجابته التاجر من الأسفل: «على جبل ذهبي؛ خذ الرفش واحفر بحثاً عن الذهب».

حفر الرجل الفتي وحفر، ودحرج كل الذهب الذي استخرجه إلى الأسفل، وراح الرجل يضعه في العربات.

أخيراً صرخ السيد: «يكفي!. شكراً لمساعدتك. وداعاً!».

«وأنا كيف سأنزل؟».

«كما تريد، فقط تسعة وتسعون رجلاً مثلك قضوا نحبهم. معك سيصير العدد تاماً ويبلغ المئة».

غادر التاجر الغني المتعجرف.

فكّر ابن التاجر المسكين: «ماذا علي أن أفعل؟».

«مستحيل النزول! لكن البقاء هنا يعني الموت، الموت القاسي جراء الجوع».

وقف صاحبنا على الجبل، بينما حامت الغربان السود ذات المناقير الحديد فوق رأسه، كأنها تتهيأ مسبقاً لالتهام طريدتها.

حاول الشاب أن يفكر كيف حدث كل هذا، وتذكر الفتاة الجميلة وما قالت له عندما أعطته محك الذهب وحجر الصوان. تذكر قولها له: «خذ هذا، قد تحتاج إليه يوماً».

قال في نفسه: «أعتقد أنها كانت تضمر شيئاً، فلنجرّب».

أخرج ابن التاجر المسكين محك الذهب وحجر الصوان، وضربهما ببعضهما وانظر! إذا برجلين قويين يقفان أمامه، ويقولان له: «ما هي أمنيتك؟ ما هي أوامرك؟».

«أنزلاني من عن هذا الجبل إلى شاطئ البحر».

وفوراً حمله الرجلان بحذر وانزلاه.

ووجد بطلنا نفسه يمشي بمحاذاة الشاطئ. أرأيت هناك! مركب آت يبحر بالقرب من الجزيرة.

«أهوويي.. أيها الرجال الطيبون، خذوني معكم!».

تابعوا الابحار: «لا وقت لدينا للتوقف. لكن الرياح صفرت وهبّت عاصفة هوجاء.

فقرر البحارة: «يبدو أن ذلك الشاب ليس عادياً، من الأفضل أن نرجع ونأخذه معنا».

أداروا الدفة باتجاه السفينة، حطوا هناك، أخذوا ابن التاجر معهم وأعادوه إلى بلدته الأم».

مر وقت طويل، وربما فترة قصيرة بعدها– من يستطيع أن يعرف؟ –– في ذلك اليوم حمل ابن التاجر مجدداً الرفش وذهب إلى السوق بحثاً عن عمل.

جاء الرجل الغني نفسه بعربته المذهبة؛ وكما حدث من قبل، سارع الرجال إلى الاختباء بمجرد أن رأوه مقبلاً.

بقي ابن التاجر وحيداً.

«هل ترضى بان تعمل لدي؟».

«سوف أفعل لقاء مئتي روبل يومياً».

«أجرك مرتفع أيها الأخ».

«إذا وجدته مرتفعاً فاذهب إلى الآخرين؛ اجلب عاملاً رخيصاً. كان هناك الكثير من الناس، ولكن عندما ظهرت - رأيت بنفسك- لم يبق أحد».

«حسناً، لا بأس. تعال غداً إلى رصيف المرفأ».

التقيا على الرصيف، ركبا سفينة وأبحرا باتجاه الجزيرة.

أمضوا اليوم الأول بفرح، وفي اليوم التالي ذهب العامل وسيده إلى العمل.

عندما وصلا إلى الجبل الذهبي، قاد التاجر المتكبر الغني أجيره إلى فخ.

«قبل كل شيء، خذ اشرب».

«انتظر يا سيدي! أنت رأس العمل وعليك أن تشرب أولاً. دعني أقوم على خدمتك هذه المرة».

كان الشاب قد حضر مسبقاً بعض الشراب المنعس وخلطه سريعاً مع النبيذ وقدمه إلى معلمه.

شرب التاجر المتكبر وغط في النوم.

قام ابن التاجر بقتل حصان عجوز، فتح بطنه، وضع سيده والرفش في داخله، أخاطه كله وخبأ نفسه بين الأشجار.

فوراً أتت الغربان السود ذات المناقير الحديد؛ وحملت بسرعة الحصان وفي داخله التاجر النائم، ونقلته إلى أعلى الجبل وبدأت تنقر عظام الجيفة.

عندما أفاق التاجر نظر هنا وهناك.

«أين أنا».

«على قمة الجبل الذهبي. الآن إن كنت قوياً بعد الراحة، لا تضيع الوقت؛ امسك الرفش واحفر. احفر بسرعة وسأعلمك كيف تنزل».

كان التاجر المتكبر الغني مجبراً على الإطاعة فحفر وحفر. وامتلأت اثنتا عشرة عربة.

صرخ ابن التاجر: «يكفي! أشكرك جزيل الشكر، وداعاً!».

«وماذا عني؟».

«بإمكانك أن تفعل ما تريد! سبق أن قضى تسعة وتسعون رجلاً نحبهم قبلك؛ ومعك سوف يصبح العدد مئة».

أخذ ابن التاجر معه العربات الاثنتي عشرة المحملة بالذهب، وصل إلى القصر الذهبي وتزوج الابنة الجميلة؛ أصبحت ابنة التاجر سيدة على كل أملاك والدها، وانتقل ابن التاجر الغني مع عائلته كي يعيشوا في البلدة الواسعة.

وماذا عن التاجر الغني، التاجر الغني المتكبر؟

لقد أصبح، مثل العديد من ضحاياه، فريسة الغربان السود، ذات المناقير الحديد.

حسناً. أحياناً تجري الأمور على هذا الشكل.

الصقيع الأب

في بلد بعيد، في مكان ما من روسيا، عاشت خالة لها ابنة وأخرى من امرأة أخرى. كانت تحب ابنتها، ومهما فعلت تكون والدتها سباقة في كيل المديح لها؛ ولكن لم يكن هناك سوى القليل من المديح لابنة زوجها؛ برغم أنها كانت نشيطة ولطيفة، فلم تكن تنال إلا العتب. ما الذي كان يمكن فعله. تصفر الريح لكنها تتوقف عن الصفير أحياناً؛ لكن المرأة الشريرة لم تعرف البتة كيف توقف شرها. ذات يوم جميل مصقع قالت زوجة الأب لزوجها: «الآن، أيها الشيخ، أريد ابنتك بعيدة عن عيني، وعن أذني. لا يمكنك أن تأخذها إلى قومك في إيزبا[1] دافئة. بل عليك أن تأخذها إلى الحقول الواسعة حيث الصقيع يطقطق العظام».

أحس الوالد المسن بالحزن، وحتى انه بدأ بالبكاء والنحيب، لكن هذا لم يمنع من اقتياد الابنة الصغيرة إلى الذبح. أراد أن يخبئها في جلد ماعز كي يحميها من البرد؛ لكنه لم يفعل ذلك.

(1) سقيفة خشبية (م).

كان خائفاً لأنه يعرف أن زوجته تراقبه من الشباك. وهكذا ذهب مع ابنته الجميلة إلى الحقول الشاسعة؛ اقتادها بالقرب من الغابة وتركها هناك وحيدة، وابتعد بسرعة– كان رجلاً صالحاً ولم يرغب برؤية ابنته وهي تموت.

بقيت الفتاة الحلوة وحدها. كان قلبها مكسوراً مسكوناً بالرعب. فرددت بحرارة كل الصلوات التي تعرفها.

اقترب الصقيع الأب شيئاً فشيئاً، هو الحاكم العظيم لذلك المكان، المتلحف بالفراء، ذات اللحية البيضاء الطويلة والتاج اللامع على رأسه الأبيض، اقترب أكثر فأكثر، نظر إلى ضيفته الجميلة وسأل: «هل تعلمين من أنا؟ أنا الصقيع الأحمر الأنف؟».

أجابت الفتاة الصغيرة بلطف: «أهلاً بك، أيها الصقيع الأب، أرجو أن يكون الرب الرحيم قد أرسلك من أجل روحي الخاطئة».

مجدداً سأل الصقيع: «هل أنت مرتاحة، أيتها الفتاة الحلوة؟»، كان إعجابه يزداد بشكلها وتصرفاتها اللبقة.

أجابت الفتاة ونفسها يكاد ينقطع من شدة البرد: «أنا كذلك بالفعل».

وتابع الصقيع، الفرح والزاهي، زحفه بين الأغصان حتى أصبح الهواء جليدياً، لكن الفتاة الطيبة المهذبة تابعت تكرر: «أنا مرتاحة جداً يا والدي الصقيع العزيز».

لكن الصقيع، بأي حال، كان يعلم كل شيء عن ضعف الكائنات البشرية، عرف جيداً أن بعضهم صالح ولطيف؛ لكنه لم يعرف أياً منهم يستطيع مقاومة قوة الصقيع، ملك الشتاء، طويلاً.

سحر لطف الفتاة الصقيع العجوز إلى درجة أنه قرر أن يعاملها بشكل مختلف تماماً عن الآخرين، وأن يعطيها عربة ثقيلة مليئة بالكثير من الأشياء الجميلة. أعطاها «سكوبا»[1] فخمة ولحف حريرية خفيفة كالريش ودافئة كحضن أم. أي فتاة غنية أصبحت وكم تلقت من هدايا رائعة! وإلى جانب كل هذا، أعطاها الصقيع العجوز «سارافاناً»[2] أزرق مزيناً بالفضة واللآلئ.

عندما ارتدت الفتاة الصغيرة بعض هذه الأشياء أصبحت صبية جميلة.. حتى إن الشمس ضحكت لها.

---

(1) عباءة واسعة من الفرو (المؤلفة).

(2) الثوب الوطني التقليدي للنساء في روسيا (المؤلفة).

كانت الخالة في المطبخ مشغولة تطبخ الكعك المحلى كوليمة على جاري العادة بتقديم الكعك المحلى للكهنة والأصدقاء عن روح الميت.

قالت الزوجة لزوجها: «الآن أيها الشيخ. انزل إلى الحقول الواسعة واجلب جثة ابنتك. فسوف ندفنها».

غادر الرجل . وهز الكلب في الزاوية ذيله وقال: «باو- واو! باو-واو! ابنة الرجل المسن في طريقها إبى المنزل. جميلة وسعيدة كما لم تكن من قبل، وأصبحت ابنة المرأة أكثر شراً من أي وقت مضى».

صرخت الخالة وضربت الكلب الصغير قائلة: «الزم حدودك أيها الحيوان الغبي! هيا، خذ هذه الكعكة المحلاة، كلها وقل: ابنة المرأة المسنة سوف تتزوج قريباً وابنة الرجل المسن سوف تدفن قريباً».

أكل الكلب الكعكة وبدأ من جديد: «باو- واو! باو-واو! ابنة الرجل المسن قادمة إلى المنزل غنية وسعيدة كما لم تكن من قبل، وابنة المرأة المسنة في مكان ما لئيمة وشريرة كما لم تكن من قبل».

طار صواب المرأة غضباً من الكلب، وبرغم الكعك المحلى والضرب بالسوط، ظلّ يكرر الكلمات نفسها.

فتح أحدهم الباب، سمعت أصوات الضحك والكلام في الخارج. نظرت المرأة المسنة خارجاً وجلست مذهولة. كانت ابنة زوجها تجلس هناك مثل الأميرة، لامعة وسعيدة تغطيها أجمل الحلى، وخلفها يئن والدها المسن تحت حقيبة ثقيلة من أفخم الثياب.

نادت زوجها بنفاد صبر: «أيها الشيخ! اربط أفضل جيادنا بأفضل مزلجة لدينا، وسق ابنتي إلى المكان نفسه في الحقول الشاسعة».

أطاعها الرجل كما العادة وأخذ ابنة زوجته إلى المكان نفسه وتركها وحيدة.

كان الصقيع الأب هناك؛ نظر إلى ضيفته الجديدة.

سأل الحاكم ذات الأنف الأحمر: «أأنت مرتاحة، أيتها الصبية الجميلة؟».

أجابته الفتاة بلؤم: «دعني وشأني.ألا ترى أن يديّ ورجليّ تكاد تتجمد من كثرة البرد؟».

ظل الصقيع يزحف ببطء ويسألها أسئلة مدة من الزمن، لكنه لم يكن ليحصل على أجوبة مهذبة وأصبح شديد الغضب فجمد الفتاة حتى الموت.

وفي البيت قالت المرأة: «أيها الشيخ، اذهب وأحضر ابنتي. خذ معك أفضل الجياد؛ وكن حذراً؛ لا تكسر المزلجة، ولا تفقد الصندوق».

وقال الكلب الصغير في الزاوية: «باو—واو! باو—واو! سوف تتزوج ابنة الرجل المسن قريباً، وسوف تدفن ابنة المرأة المسنة قريباً».

«لا تكذب. خذ هذه الكعكة، وقل: ابنة المرأة المسنة محللة بالذهب والفضة».

فتح الباب، ركضت المرأة خارجاً وقبلت شفاه ابنتها القاسية المتجمدة. ناحت وناحت، لكن لم يعد ذلك يجدي نفعاً، وفهمت أنه بسبب شرها وحسدها ماتت ابنتها.





المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة



كلمة
KALIMA





ISBN 978-9948-01-335-8
9 789948 013358